عمر عوض خريص

# أميرة الشِّحر

(رواية تاريخيَّة)



دار الأسعاء
للدراسات والنشر

أميرة الشحر

عمر عوض خريص

دار الأسعاء
للدراسات والنشر

## هذا الكتاب:

"أميرة الشِّحر" رواية أدبيّة تاريخيّة استلهم مؤلفها الأستاذ عمر خريص أحداثها من تاريخ مدينته الشحر, فغاص في أحداث القرن التاسع الهجري, واستخرج منها أبرز امرأة كان لها الدّور الرِّيادي والقيادي في المنطقة, تلك الأميرة هي "سعاد بنت معاشر" والدة الأمير محمد بن سعيد بن مبارك بادجانة حاكم الشحر الطموح الذي هاجم عدن للسيطرة عليها وتحريرها من الطاهريين, كما في أحداث الرواية, وهذه الأميرة قيل أن مدينة الشحر سمِّيت "سعاد" تيمناً باسمها, وذلك لكونها من أبرز النِّساء اللواتي مررن على تاريخ الشحر, إن لم تكن الأبرز على الإطلاق.

أستطاع الأستاذ خريص استلهام الحدث واستحضاره برشاقة من قلب التاريخ, وبقدرته الفائقة قام بمعالجة تلك الأحداث التاريخيّة البعيدة, حيث أن القارئ يستطيع أن يعيش تلك الأحداث وكأنه عاش في ذلك القرن البعيد "التاسع الهجري", وهذا الأمر يدل على مقدرة أدبية فذّة تستطيع أن تكمل الطريق الذي بدأه رائد الرِّواية في اليمن الأديب الشحري الكبير أحمد بن عبدالله السقاف.

**الأستاذ عادل حاج باعكيم**

أميرة الشِّحر

**رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م/ حضرموت ( ٢٣٧ ) لعام ٢٠٢٢م**

**عنوان الكتاب:** أميرة الشِّحر ـ رواية تاريخيَّة.

**المؤلف:** عمر عوض خريص.

**الحجم:** ١٤ × ٢١ سم.

**تصميم الغلاف:** حُسام علي بامحسون.

**الناشر**

**دار الأسعاء للدراسات والنشر**

**الشحر – حضرموت – اليمن – ت: ٠٠٩٦٧٧٣٨٤١٠٢٧١**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م**

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي.

# أميرة الشِّحر

## رواية تاريخيَّة

عمر عوض خريص

## الإهداء..

إلى أهلي وناسي الكرام، أهل مدينة الشحر الحبيبة..

أهدي إليهم هذا العمل الروائي التاريخي المستمد من تاريخ مدينتهم العريقة..

مع خالص ودِّي وتقديري.

**أخيكم: عمر**

الشحر: ٣ سبتمبر ٢٠٢٢م

# تصدير

**بقلم: الأستاذ عادل حاج باعكيم**

**مدير دار الأسعاء للدراسات والنشر**

الرِّواية نوع راق من الأدب، ويكون أرقى عندما يحاكي تاريخاً عريقاً، أو يستلهم تجارب لأناس عظام، وعرضها بأسلوب رشيق يجذب الألباب ويسبي الفكر، مما يدفع الذين يغوصون في تلك الرِّواية للإبحار بعيداً في آفاقِ ذلك الحدث المسرود، فيكون ذلك إلهاماً لهم في حياتهم وفتحاً لآفاقٍ تعينهم على الإبداع والحياة.

عَرَفت الشحر مدينة الأدب والثقافة الحضرميَّة الرِّواية منذ مائة عام تقريباً حينما كتب الأديب الكبير أحمد بن عبدالله بن محسن السقاف المولود بمدينة الشحر سنة ١٢٩٩هـ الموافق ١٨٨٢م روايته "فتاة قاروت" التي طبعت عام ١٩٢٨م، وهذه الرِّواية تعدُّ أول رواية في اليمن، ثم كتب بعد ذلك روايته الثانية "الصبر والثبات" التي طبعت عام ١٩٣١م.

وعلى ذلك الطريق المضاء بأنوار الإبداع والتألق سار عدد من أدباء مدينة الشحر مقتفين طريق الرّائد السقاف، من أولئك الأدباء الأستاذ عمر عوض خريص الذي نحن بصدد تقديم روايته الأولى للقُرَّاء، وإصدارها ضمن سلسلة (روايات الأسماء)، وهذا الإصدار يعدُّ أول إصدار في تلك السلسلة الأدبية، وستتبعها غيرها قريباً.

"أميرة الشّحر" رواية أدبيَّة تاريخيَّة استلهم مؤلفها الأستاذ عمر خريص أحداثها من تاريخ مدينته الشحر، فغاص في أحداث القرن التاسع الهجري، واستخرج منها أبرز امرأة كان لها الدَّور الرِّيادي والقيادي في المنطقة، تلك الأميرة هي "سعاد بنت معاشر" والدة الأمير محمد بن سعيد بن مبارك بادجانة حاكم الشحر الطموح الذي هاجم عدن للسيطرة عليها وتحريرها من الطاهريين، كما في أحداث الرواية، وهذه الأميرة قيل أن مدينة الشحر سمِّيت "سعاد" تيمناً باسمها، وذلك لكونها من أبرز النِّساء اللواتي مررن على تاريخ الشحر، إن لم تكن الأبرز على الإطلاق.

أستطاع الأستاذ خريص استلهام الحدث واستحضاره برشاقة من قلب التاريخ، وبقدرته الفائقة قام بمعالجة تلك الأحداث التاريخيَة البعيدة، حيث أن القارىء يستطيع أن يعيش تلك الأحداث وكأنه عاش في ذلك القرن البعيد "التاسع الهجري"، وهذا الأمر يدل على مقدرة أدبية فذَة تستطيع أن تكمل الطريق الذي بدأه رائد الرِواية في اليمن الأديب الشحري الكبير أحمد بن عبدالله السقاف.

وعندما طالعتُ هذه الرِواية التي بين أيدينا تذكرت مبحثاً لطيفاً لأستاذنا الجليل عبدالرحمن بن عبدالكريم الملاحي -رحمه الله تعالى- بعنوان: "استلهام التراث وتوظيفه مسرحيّاً"؛ وليس المسرح فقط ما نستطيع أن نستلهم التراث له، بل عالم الرَواية أكبر اتساعاً وأكثر شيوعاً وأوسع أفقاً وأبعد خيالاً، لذلك نهنيء الأديب الشحري الأستاذ عمر خريص على إبداعه هذا؛ والآن أترككم أعزائي للاستمتاع بهذا الرواية الرائعة؛ والحمد لله رب العالمين..

**مدينة الشحر - أكتوبر ٢٠٢٢م**

-١-

مدَّت بصرها الكليل على صفحة البحر الزرقاء إلى نهاية حدود الرؤية، حدقت ووسعت محجري عينيها لعل عيناها تستوعب المزيد من الرؤية، ولعلها تستشف ما يقف خلف مالا تراه العين المجردة، قلبت نظرها شاخصة في شيء تدرك معناه، ولا تدرك ما يأتي به، ردت بصرها مسترجعة إلى ذاتها، عسى من ذاتها تخرج بعض الأجوبة لأسئلة لا تجد لها جواباً، اتكأت على حافة شرفتها الخشبية، ووضعت ذقنها على راحة يدها اليُمنى ونصبت ساعدها، مدَّت يسراها أسفل منها، ثنت ركبتها اليُسرى، وأحدبت ظهرها، ثم استقرَّت وحدَّقت، ربما يساعدها هذا الوضع على التركيز أكثر، ساعات الصباح الأولى تحمل من النشاط والتفاؤل مالا تحمله ساعات النهار الأخرى، الهواء رطباً ندياً، ورائحة البحر وصوت أمواجه يملئان المكان، قوارب

الصيَّادين من على بعد تشق صفحة البحر، تأتي أصواتهم مع كل جدفة تجدفها مجاديفهم الخشبية، ومع ترجيع الصدى كهمهمة :

( هيه يا الله هيه يا الله،

يا طالب رزق الله . .

هيه يا الله هيه يا الله،

أتوكل على الله . .

هيه يا الله هيه يا الله) .

وعلى مقربة من الشاطئ وقفت خمس سفن شراعية فيها من البضائع والسلع الكثير مما جلبه بواسطتها تجار الشحر المشهورين من بلاد الهند والملايو وشرق إفريقيا، تنتظر تفريغ حمولتها وخيراتها الوفيرة، وعلى الشط تدب في الميناء حركة عمال التفريغ وهم يتنادون لصعود قواربهم (العباري)، مقدم العمال يسميهم واحداً واحداً (. . مبارك . . عبيد . . سعد . . رزق . .

نصر . . فرج . . يسر . . سالم . . . .

يالله على العبري الهميم ) . .

( سعيد . . حمد . . كرامة . . عوض . .

ربيع . . عمر . . يسلم . . علي

. . علي العبري الكور ) .

كل هذا تراه أمام عينيها كل صباح، في هذه الفصول المباركة، حيث تنشط الملاحة وترتاد السفن أعالي البحار، ولكن هذا الصباح غير كل صباح ، شيء ما يثقل على كاهلها ، شيء تحسه بإحساس الأم والأنثى ، لعله مصير مجهول، أو قدر محتوم، رغما عنها سوف تخوض غماره، ولكنها لا تدري ، كيف ومتى ؟، ما يخبيه عنها ابنها الأمير محمد ، يزيدها قلقا ، فهو لم يعد كما كان يحدثها بكل صغيرة وكبيرة في هذه الإمارة، ويستشير رأيها ، وقد عهدها صاحبة الرأي السديد والنصح القويم المتين ، ولكن ماذا عساه أن يكون ؟ أي

أمر يضمره ابنها الأمير ولا يصرح به؟ لا بأس لا بأس . . ستعلم غداً أو بعد غد، فلا شيء يمكن أن يكون في طي الكتمان أكثر مما يظنه المرء، فإذا كان هناك شيئاً يهدّد كيان هذه الإمارة فلن تسمح به، وإذا كان هناك شيئاً من نزغ وطيش الشباب فلن تسمح أيضاً به، شهقت وأخذت نفساً عميقاً، ثم زفرت زفرة طويلة وكأنها تخرج من بين أضلعها ما علق بينها من هم وكدر، انتصبت واستدارت إلى غرفتها، لا شيء تغير فيها منذ أن رحل عنها زوجها الأمير سعيد، حرصت على إبقائها كما هي ولعلها تودُّ أن تبقى على ذكرى زوجها مثلما تركها، السرير الأميري بكل أُبَّهته وفرشه القطني وتلابيسه وملاءته وأغطيته الحريرية المجلوبة من الهند، الوسائد بريش النعام والطرح المزخرفة المزدانة بالنقوش، والستائر من شقائق النعمان، والكنب الناعم المرفه، والكراسي الخشبية المصنوعة من الساج، والطاولات الصغيرة، والسجَّاد، والأباريق، والفوانيس، والمعاليق، والأواني الفضيَّة، وعلى الزاوية الشرقيَّة علق درعه وسيفه، قال لها مرة (هذا سيفي البتار سيف ورثته عن أبي الأمير مبارك وهو ورثه

أيضاً عن جده فارس بادجانة، هو سيف الأمراء من آل أبي دجانة، حفظوا به ملكهم وارهبوا به أعداءهم، فكان سيف حق وعدل)، وفي الركن الجنوبي من غرفة نومها مكتبه، هنا كان يكتب رسائله ويقرأها، ويصادق على خطط الدولة ويدرسها، دواته لا زالت على ما هي عليه.

(آه .. آه .. ولي الغالي وتكالبت عليَّ الهموم وتقدم بي العمر وكل نعيم لا محالة زائل، إن سلواي في ابني محمد، ففيه أرى ملك آل أبي دجانة ومجدهم، وها هو محمد يقوي دعائم الدولة ويصلح شأن البلاد والعباد، وهذا عهده من أزهر عهود آل أبي دجانة قاطبة )، تمتمت داعية مولاها أن يحفظ لها أبنها وملكه وأن لا يريها مكروهاً فيما تحبه وترضاه، ولم يكن باب غرفتها مغلقاً (وهي تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً) بل كان مواربا، طرقت وصيفتها نور بأصابعها الرقيقة على باب حجرة مولاتها الأميرة، ثم أدخلت رأسها

مستطلعة، فرأت أميرتها في منتصف الغرفة، وقد اشرأب عنقها إلى الباب، ويداها معقودة خلفها، قالت لها نور بصوت أكثر دلالاً .

ـ أسعد الله صباح مولاتي .

ـ آها نور . . تعالي هنا . .اقتربي . .

ـ حاضر مولاتي .

حثت نور خطواتها إلى داخل الغرفة حتى امتثلت بين يدي أميرتها، قالت وقد تدلى رأسها وطأطأت .

ـ لبيك يا مولاتي .

أخذتها من يدها اليُسرى، سارت بها إلى حيث اريكتها، جلست الأميرة، وجلست الوصيفة تحت قدميها، رفعت رأسها وشخصت وأصغت السمع منتظرة ما سوف تلقيه عليها أميرتها، أما الأميرة فمدت رجليها واراحت ظهرها، تنحنحت، وحدقت في وجه نور كمن يستنطقها، قالت في تؤده ورفق:

ـ نور . . هل علمت بشيء يقال في القصر ؟

ـ شيء ! . . مثل ماذا يا مولاتي . .

ـ أي شيء يا نور . . أي شيء . . أي شيء لم يصل إلى سمعي .

ـ آه يا مولاتي . . كلام نساء القصر وحكاويهن كثير . . وأحياناً بدون جدوى .

.آها . . إذاً أخبريني بالكلام ذي الجدوى ها ها ها .

.أمر مولاتي . .

تهيأت نور لاستجماع أفكارها لتسرد لمولاتها ما يهم من أخبار القصر وأخبار نسائه ، تلكأت أول الأمر ، ولكنها أطلقت لسانها بما عن لها أن تقوله .

ـ ياسمينة المغنية يا مولاتي بينها وبين المغنية بشرى خصام . . آه خصام . . بسبب الشاعر ( برك الشول ) ، عرفتِ لماذا يا مولاتي ؟

ـ ها ها ها . . لا ما عرفت يا نور . . لماذا ؟

ـ قالت ياسمينة إن القصيدة (زوري زوري . . يا ورد الجوري . . إذا سمحت ظروفك زوري) أرسلها الشاعر (برك الشول) مع خادم القصر سالمين ليعطيني إياها فأخذتها بشرى منه واحتفظت بها لنفسها وغنتها ! فلما عرفت ياسمينة وعلمت . . هاجت وماجت وتوعدت بشرى بالويل والثبور .

ـ طيب . . وهل حقا الشاعر برك أرسلها لياسمينة .

.نعم . . حقا يا مولاتي . . هكذا تبين لي أنا بالذَات .

ـ ها ها ها . . طيب . . طيب . . وكيف تبين لك أنت بالذَات .

أشرقت عيني نور بألق لمع فيها وهي تبادل أميرتها الابتسام، هي تعرف حب أميرتها لها وثقتها فيها ، بل واعتمادها عليها في الكثير

من الامور، هي سيدتها حقا ولكنها تشعر بأنها أقرب ما تكون لديها كصديقة حميمة، لعل طول العِشرة والخدمة بإخلاص وتفان جعلها أثيرة لدى سيدتها وأميرتها .

.آه يا مولاتي . . أصل . . أصل.

.أصل . . أصل . . ماذا . . يا ماكرة أفصحي ؟

. لا لا يا مولاتي . .أقصد أن بين ياسمينة والشاعر ود، وهو يخصها بقصائده.

. آها ود . . يعني هو يقصدها بقوله (زوري زوري ) . . هذا الخبيث يمد عينه إلى حريم القصر . . طيب، إلا ما قلت لي لماذا سالمين إعطاء القصيدة لبشرى ولم يعطيها لياسمينة . .

لم تتوقع نور سؤال سيدتها هذا، فقد باغتتها، فهي لا تريد أن تتحدث في أمر بشرى فهي صديقتها الأثيرة، وتريد أن تتكتم على أمرها، ولكنها الأميرة الآن تسأل، وهي لم تكذب عليها قط،

حتى فيما يخصها هي بالذات، وفي أخص خصوصياتها الخاصة لم تكتم الأميرة في شيء عنها إذا استفسرت منها، ولكن لا بأس عليها، فالأميرة رغم حزمها وصرامتها في إدارة شئون القصر إلا أن قلبها أيضاً ملىء بالعاطفة والرحمة والإشفاق.

ـ نعم يا مولاتي . . سالمين يميل إلى بشرى، لذا هو يريد أن يرضيها.

ـ ما شاء الله . . ما شاء الله . . الهوى والغرام في قصري وأنا آخر من يعلم . . آه . . نور أنت فتحت الباب لهن يا نور، تساهلي معك في حكاية عشقك مع القائد ( صالح بن عفار ) شجعت الأخريات على تقليدك . . آه . . آه . . ولا ادري ما ذا سيحدث بعد.

ـ على رسلك يا مولاتي . . والله لم يحدث شيء . . كل ما في الأمر تبادل رسائل ونظرات من بعيد.

ـ تبادل رسائل ونظرات من بعيد ؟ . . ولم يحدث شيء ؟ . . ماذا تريدين أكثر من هذا ؟ يا . . . استغفر الله . . استغفر الله . . ، طيب هذا القائد العاشق هل رأيته قريباً .

ـ من تقصدين يا مولاتي ؟

ـ ابن عفار يا نور . .

ـ رأيته يا مولاتي بالأمس من شرفتي ، وهو يدخل القصر بصحبة الشيخ ( مبارك الكلدي ) .

ـ مبارك الكلدي . . هذا الفار الهارب من الطاهريين بعدن ، منذ وصوله إلى الشحر وهو يبيت أمراً ما . . آه ليتني أعلمه . . ، نور . . انهضي في الحال والتو وتدبري أمرك . . اريد أن أقابل القائد ( صالح بن عفار ) في حديقة قصري هذا المساء ، هيا أنهضي . . هذا المساء .

نهضت نور وانتصبت واقفة، وأرخت شالها الأخضر لتغطي فتحة الصدر التي كشفت عن بياضه وإشراقه المفرط، قالت متمتمة:

ـ حاضر مولاتي . . إن شاء الله هذا المساء .

-٢-

لم يدر بخلد القائد (صالح بن عفار) وهو يتسلل خلسة إلى حديقة قصر الحريم الأميري، بما سوف تواجهه به الأميرة أم محمد ، فقد اعتاد على إيصال ما لديه عبر وصيفتها الجميلة نور، نور التي تسللت إلى قلبه ووجدانه دون أن يدري حتى متى وكيف، كان يطلق عليها حمامة المهمات، ولكن حمامة المهمات هذه الليلة تخلي له السبيل وتقوده إلى حيثما تريد سيدتها لقاءه، وفي ركن قصي في حديقة القصر الغناء جلس يرتقب وصول أميرته (أم محمد)، أخذ يلتفت يسرة ويمنة خوفا من أن تكون هناك عينا ترصده ، ولكنه لم يرَ أحداً . . اطمأن بعض الشيء وأخذ يقرع بأطراف أصابعه على قبضة سيفه، لعل هذه القرعات الخفيفة تلهمه شيئاً مما يراد منه هذه الليلة.

- ماذا عساها الأميرة قائلة أو فاعلة ؟

- أيكون هناك أمرٌ جلل يستحق هذه المغامرة والتسلل الخفي إلى جناح الحريم ؟

لم تأخذه هواجسه إلى البعيد فقد باغتته الأميرة بحضورها وهو شارد الذهن ولم يشعر بها ألا وهي بجواره.. من خلفها وصيفتها نور قادتها إلى حيث ينتظر، لم يظهر الليل الكثير من ملامحها رغم سطوع القمر في أوله، ولكن قامتها تحمل سمات الوقار والحشمة، فهي الأميرة المكللة على قلوب رعيتها قبل ان تكون أماً للأمير محمد، انتصب أمامها، وانحنى انحناءة خفيفة متمما بعبارات الترحيب، استدارت نصف استدارة وجلست على إحدى الأريكتان الموجودتان وأشارت بأن يجلس على الأخرى، وبإيماءة أمرت جاريتها نور بأن تغادر المكان، سحبت نور رجليها ببط ء منسحبة إلى حيث أمرتها سيدتها، وكان بودها لو تظل واقفة حيثما هي لا لتسمع ما يدور فهي لا يعنيها إلا أبن عفار

الساكن قلبها ووجدانها، ولكن ليس لها حيلة إلا أن تنفذ أمر أميرتها، وارتضت بأن تقف في أول المنعطف شاخصة ببصرها إلى عشيقها المكلل بالحب والوجد، عسى أن يلتقي بصرها ببصره كلما سنحت له الفرصة إلى التحديق حيث تنتظر هي .

على الأريكتين المتقابلتين، بدأت الأميرة جليسها قائلة له:

ـ تأخرت علينا كثيرا يا ابن عفار ؟

ارتبك صالح بن عفار من سؤال المباغتة فلم يدر أعتب هو أم ماذا، رفع عينيه ليحدق في عينيها لعله يستشف ما خفي عنه أو ان يعلم منهما ما يوضح له أمر الدعوة، ولكنه وجد في عينيها ثباتا لم يعهده من قبل وقوة جعلته يغض طرفه و يطأطئ رأسه ، أراد أن يكون جوابه موزوناً فكل كلمة يقولها للأميرة محسوبة عليه ، وخصوصاً وهو لا يعلم ماذا تريد، فالأميرة أكثر دهاء وذكاء، مشهود لها بذلك بين الخاص

والعام، وهو خبرها بنفسه، فعسى أن يكون خيراً، وهي بدورها لم تمهله في الرَّد عليها بل قالت مكملة بقولٍ لين:

ـ أنت تعرف خصوصيتك عندنا يا ابن عفار، أكيد تعرف؟.. لذا وددت مقابلتك اليوم والحديث معك على انفراد، ولم احمل رسالتي (نور) حتى أقف بنفسي على ما يشغلني، وأن يكون الكلام بيني وبينك، فأصدقني في كل ما تقوله ولا تخبي عني؟

شدَّ ابن عفار جذعه متيقظا وافرد صدره مستدركاً أن الأمر جد خطير ومهم، قال لأميرته:

ـ وهل رأيتي مني غير الصدق يا سيدتي؟ وهل رأيتي غير الوفاء؟

قالت الأميرة وقد أشرق في عينيها ألق الانتصار والنشوة والرِّضاء:

ـ لا يا ابن عفار لم نر منك سوى الصدق والوفاء . . لهذا أنت معي الليلة أحدثك فيما يقلقني ويزعج راحتي . .

ـ وماذا يقلق ويزعج سيدتي الأميرة ؟

ـ آه يا ابن عفار . . كثيرة الأمور التي تزعجني هذه الأيام . . أي والله كثيرة . . ولكن أهمها هو ما سأخبرك به .

ـ كلي آذان صاغية يا سيدتي فأخبريني .

ـ إن ما يقلقني يا ابن عفار هو معاملة ابني الأمير محمد الأخيرة لي، فلم يعد في الشهرين الفائتة يخبرني بما يشغله من أمور الإمارة وشؤون الرَّعيَّة، كما أني أشعر بأنه يخفي عني شيئاً ما لا يريدني أن أعرفه . . هل تعرف أنت ما هو يا ابن عفار ؟

تململ ابن عفار على أريكته وهمهم قائلا: شيئاً ؟ ؟ ماذا عساه أن يكون ذلك الشيء ؟

قالت الأميرة بشيء من الحزم أنا لا أعرف وأريد أن أعرف هذه الليلة.. ما الذي يخفيه عني الأمير محمد و أنت سوف تخبرني ، فأنت أحد قُوّاده ومن المقربين لديه، وأدرى وأعلم بالتفاصيل ؟

ـ لعلك يا مولاتي تقصدين ما يتهامس به الخاصة حول وجود الشيخ (مبارك الكلدي) بالشحر ولقاءاته المغلقة بالأمير محمد . .

ـ نعم نعم هذا بالضبط ما يزعجني الشيخ الكلدي وعلاقته بابني وتقربه له ؟ أريد أن أعرف حقيقة ما يجري فقلبي لا يطمئن لهذا الشيخ، وكم كلمت فيه ابني بأن يعتذر عن قبوله في الشحر فلم يستجب لي ! . . أخبرني بما يدور.

ـ ليس هناك يا مولاتي ما تأكد ولكن التكهنات والتخمينات هي وبعض المعطيات جعلتهم يرجحون، وخصوصاً حينما اجتمع الأمير (محمد) والوزير الشيخ سليمان بن تايه والشيخ مبارك الكلدي، كان اجتماعاً طويلاً، خرج الوزير سليمان بن تايه بعده غاضباً،

كان يدمدم بكلمات حانقة، حتى أنه كان بالبهو الخارجي يجلس عدد من المشايخ في انتظار الأمير فما القى عليهم السلام ولا التفت إليهم، ولكن سرت بعد ذلك اليوم شائعات منها . . أن الأمير محمد يريد أن يوسع قاعدة حكمه إلى داخل حضرموت، ومنها ما يقول ان الشيخ مبارك الكلدي يحرض الامير محمد لضرب أبناء عمومته (آل أحمد) بعدن انتقاماً لطردهم إياه، ولكن ليس هناك ما يؤيد أو يرجح قولاً على قول . .

نهضت الأميرة واقفة منتصبة، فأراد ابن عفار أن يقف، فأشارت إليه بالجلوس، أما هي فأطرقت برأسها متفكرة متأملة، ماذا عسى أن يكون ذلك الاجتماع الثلاثي المغلق؟ ولماذا يغضب الشيخ ابن تايه كل ذلك الغضب؟ التخمينات والتأويلات لا تغني ولا تشبع من جوع . . والترجيحات لا ترقى إلى مصاف اليقين . . أما أن يكون محمد يريد توسعة قاعدة ملكه فلم يبح لي من ذلك بشيء . . ولم يحدثني . . إما أن يضرب آل أحمد فلا

أظن الأمير يقدم على أمر كهذا ؟ إذاً هناك أمر خفي عن الجميع بلا شك ولا ريبة. . ما هو؟ يا أم محمد ماهو؟ . . ، فكرت وقدرت ولكن لم يطمئن قلبها إلى الكثير مما تخمنه، ولكنها استقرت على رأي وذلك ما قالته للقائد ابن عفار:

ـ يا ابن عفار استقر رأيي على أن أبعثك إلى الشيخ ابن تايه، سوف أكتب له رقعة تسلمه إياها ولا ترجع إلا والجواب معك إجمالاً وتفصيلاً. .

نهض ابن عفار واقفاً متمماً بالموافقة وصواب الفكرة، فلا جدوى من التخمينات ولكن أن يؤخذ الخبر من نفس المصدر أصدق وأضمن ، قالت له:

ـ غداً سوف أرسل لك الرقعة مع نور. . وعليك تتحين الفرصة لتخلو بالشيخ ابن تايه فلا أريد أن يعرف بمهمتك هذه مخلوق، وغداً في نفس الموعد تأتيني .

أكد لها ابن عفار موافقته وحرصه على إنجاز المهمة، واستأذنها في الانصراف وهو مطاطي الرأس، فانفرجت أساريرها وندت عن ضحكة خفيفة وقالت ممازحة: هه هه هه هه.. أتريد الانصراف يا ابن عفار.. أتنصرف في هذه الليلة المقمرة.. في السماء بدر.. وفي الحديقة نور.. والنسيم العليل يداعب الأشجار ويحمل الأشواق هه هه هه هه ، أين العاشق في هذا القائد المتجهّم؟..

ـ سيدتي أنما أنا جنديك المطيع..

ـ لا بأس لا بأس يا أبن عفار.. سمعت عن عشقك لنور ولكن لا بد أن تضع لهذا العشق حد.. أنا لا أمانع من تزويجك إياها.. وسوف أدفع لها المهر عنك.. هدية مني.

ضحك ابن عفار وغض طرفه وأثنى على أميرته وجدَّد ولاء الطاعة لها، أما هي فأشارت لوصيفتها نور فقدمت نور تتهادى

في مشيتها كأنها الخيزران، رآها ابن عفار كذلك فزاد نبض قلبه والتمع الشوق في عينيه، قالت نور:

ـ لبيكِ مولاتي . .

ـ ابن عفار خطبك مني يا نور و أنا وافقت وسوف يوفي بوعده لي ويحطكِ أيضاً في عينيه . .

تبسَّمت نور وهمهمت بخجل وهي مطأطأة رأسها . .

قالت الاميرة: أعرف أني الليلة عذول بين عاشقين . . ولكن لا حيلة لي . . سوف أترككم بضع دقائق ثم مهدي له سبيله يا نور ولا تتأخري .

طمئنت نور أميرتها وشيعتها بخطوتين وهي منصرفة تاركة خلفها عبقا أميرياً يضمخ المكان ويضيف عليه لمسة جمال في لوحة الليل المقمر حينما ضم في حناياه عاشقين فتحا دفتر الأشواق وبدءا يقرأنه.

-٣-

ما كاد النهار ينقضي ، وقرص الشمس الملتهب يسقط خلف الأفق، و أذان المغرب يشق عنان السماء معلنا بدخول الليل، حيث تستكين الهواجس، ويهجع المتعبين من دوامة النهار، تحرك أبن عفار المتحفز منذ الصباح وأسرع الخطو نحو مسجد (بازاراق) حيث يجد هناك بغيته، وحينما أصطف للصلاة كان كتفه محاذياً للوزير الشيخ ابن تايه، ولعل أبن عفار لم يعقل من صلاته تلك شيئاً، ولم يعي من قراءة الإمام حرفاً ومعنى ، ولكنه حين سبح وحمد وكبر وأستغفر، مد يده مسلماً على الوزير أبن تايه، وتمكن من دس قصاصة في يد الوزير، ولم يلفت انتباه أحد ، وكانت القصاصة في أقل من حجم راحة اليد ، كتب فيها أبن عفار (أريد مقابلتك بعد العشاء في بيتك)، أومأ الوزير برأسه موافقاً، وأنصرف المصلين من

المسجد وأحد تلو الآخر، وأنصرف ابن عفار قبل الوزير الذي خرج بعده مع أثنين من حراسه وخدمه، أحدهم أمسك له لجام فرسه حتى أستقر على سرجه وأنطلق، وفي طريقه إلى بيته الواقع شرق السوق مر على (الحاج منصور) كبير تجار الشحر، فوجده كعادته على أريكته الخشبية أمام متجره العامر بالأصناف الكثيرة من المواد الغذائية وغيرها، متكئ على أريكته، يناظر ويراقب من الخارج عماله وصبيانه داخل المتجر، ويرد السلام والتحية للعابر والداخل، وفي يده مسبحة صغيرة من ذوات الثلاث والثلاثين حبة، يديرها بأنامله بدون ذكر بلسانه، فهي لديه زينة وعادة، وربما في خلواته ذكر وعباده ،وبجواره كان جالساً (السيد جعفر العلوي) أحد فقها الشحر يتبادلان بعض الحديث، ونتف الأخبار، وقف الوزير بفرسه والقى التحية، نهض الحاج منصور ونهض معه السيد جعفر العلوي مرحبين بالوزير مسلمين عليه ، شد الحاج منصور على يده على أن ينزل من على ظهر فرسه، أبى أن يترجل واعتذر بضيق وقته وكثرة مشاغله ، ثم قال مداعباً:

ـ هاه يا حاج منصور . . الليلة عندك السيد جعفر ؟ عسى لا شيء علينا ؟

أمتعض السيد جعفر قليلاً وتوجَّس، في حين قهقه الحاج منصور وعقب قائلاً :

. لا لا شيء عليكم . . السيد بركتنا وإن بغيت منه دعوه صالحه بايعطيك إياها .

تبسم الوزير وقال مداعباً للسيد جعفر:

. هاه يا سيد الكلام كما قال الحاج وإلا كيف ؟

حاول السيد جعفر أن يخفي امتعاضه حينما رسم على شفتيه نصف ابتسامة وهو يرد على الوزير فقال:

. الكلام كما هو . . وفوق هذا وذاك نحن نحبك يا سليمان .

. مشكور يا سيد . . بس أنتم من ؟

. نحن أهل الشحر يا سليمان . . أنت مننا وفينا . . من قبل كان الأمير مهري والوزير مهري والعسكري مهري . . يوم جيت أنت فرحنا . . صحيح الأمير مهري بس الوزير شحري . . يعرف أصلنا وفصلنا يعرف همومنا ومشاكلنا ونحسبك لنا ومش علينا، كلامي صحيح وإلا فيه شيء غلط يا وزير؟

أبتسم الوزير سليمان، فقد استطاع أن يستفز السيد جعفر وجرجره ليفصح عما يكنه، وليتأكد من صحة كلام سمعه عن توجهات السيد جعفر السياسية، وهو يعرف أن هذه الوقفة لا تفي بالغرض بمعرفة المزيد ولكنها الفرصة السانحة، فالسيد جعفر لا يرتاد الديوان الأميري ولا يخالط أهل الدولة ،ونشاطه السياسي ترصده عيون الإمارة ، ومثله لا يلقاه إلا صدفة كهذه الصدفة ، قال له وهو يلمزه:

. كلامك فيه اللي فيه . . ويحتاج تمحيص . . ولكن ذا الحين ما هو وقته.

أستدرك الحاج منصور الحوار . . فتدخّل مغيراً لمجرى الحديث:

. يا خير شيء . . نسينا نقول للوزير عندنا سمن بنادري زينه . . تصم الركب يا وزير . . إن بغيت لك تنكه ذا الحين بارسلها لك ، هاه قلت واه .

. بغينا تنكه هتها مع حاجة الدّار . . وشف حسابك كم ؟

وودعهما الوزير سليمان ومضى حاث الخطى إلى بيته حيث يهيىء بيته لرسول الأميرة وفي رأسه تدور ألف فكرة وألف خاطرة ولا يكاد يهدأ، أما (الحاج منصور) والسيد (جعفر) فقد شجعاه بنظراتهما إلى أن واراه الشارع، فجلسا على أريكتهما بعد أن أخذا شهيقا عميقا وزفير، حدق كلا منها في عيني الآخر ليستطلعا في الأعين مالم تقوى على البوح به اللسان، همهم (الحاج منصور ) ووجه كلامه (للسيد جعفر العلوي ) في عتاب المشفق عليه والحريص على سلامته فقال:

ـ الله يهديك يا سيد . . ما بغيتك تحارش سليمان . . خله بشبطه . .

عرف السيد جعفر خوف وحرص الحاج منصور، فوزير الدولة يعتبر دولة ويعنيه أمر مولاه ، بل ومولاته أيضاً وقبل كل شيء، فالمعروف عن أبن تايه تأييده للأميرة أم محمد وأعجابه بشخصيتها القوية، وآرائها الجريئة، بل لعله كان المحرك والدافع لها فيما يبتغيه ويراه في الصالح العام أو الخاص إن لزم الأمر، شيء من الغموض يكتنف شخصية الوزير أبن تايه، وخصوصاً لدى العلويين، ولكن اليقين الذي أستقر في فكر السيد جعفر بأنه يعرف أبن تايه ويعلم خباياه، ويعرف كيف يتعامل معه وبما يخاطبه، لذا قال مطمئناً جليسه الحاج منصور:

ـ ما عليك منه . . هذا (خبز يدي والعجين) . . بس هو ذا الحين متفرّح بنفسه شوي .

ـ ما هو كذا يا سيد الكلام الذي قلته له يقدر يحبسك عليه والدولة كلها معاه . .

ـ ماهي مشكلة يحبسني والا يخليني، المهم خله يحس، ويعمل في صالح بلاده وناسه، أهل بادجانة أتعبونا ياحاج منصور، لهم البحر والبر،

والنهي والأمر وكل شيء من قداهم، ولي معاهم ما كفاهم، وقد نحن إلا مخاليس يالله بقوت اليوم، يرضيك الذي نحن فيه ياحاج؟

ـ لا ما أحد راضي بس أيش بايسوي سليمان؟ هو قلم بيد محرك ؟ والكلام الذي لا ينفع لا فائدة في إيراده والسكوت عنه أحسن ؟

ـ لا ياحاج.. إذا راضوا كبار القوم وسكتوهم على شأن ما يتكلمون.. عاد فيه ناس باتهرج وباتطالب بحقوقها واللي لها.. نحن ما نبغي صدقة من حد.. نبغي حق واضح لنا مثل ما لهم.

وأخذ الحديث بين السيد جعفر والحاج منصور أكثر من منحى، وتطرقا لأكثر من مشكلة تعاني منها البلد، وأكثر من حال لا يعجب أحد، كلام في السياسة بلغة اليوم (يودي في داهية)، رغم أن المارة ذهابا وإيابا في حركة مستمرة، وهم في ما هم فيه لا يعيرون التفاتا لأحد، ولكن حينما ظهر فجأة المجنون (مبروك) أو

(الحندبور) كما يطلق عليه (أهل السُّوق) وذلك لكثرة حركته، لكز الحاج منصور محدثه السيد جعفر قائلاً له:

- (سالمين كل تمر) جاك الحندبور . .

صمت السيد جعفر على مضض ممتثلاً لرغبة الحاج، وردَّد في قرارة نفسه لن يسكتني ألف حندبور يا حاج منصور، وسيعلم آل أبي دجانة غداً أي منقلب ينقلبون .

-٤-

على ضفة (مسيال سمعون) الشرقية وعلى بعد نصف كيلو متر من شاطئ البحر ينتصب حصن (آل أبي دجانة) يحاكي في شموخه مجد أمرائهم وبطولات قادتهم، وفي القسم الشرقي منه يقع مقر الحكم وإدارة شؤون الإمارة، وللحصن هيبة يستمدها من قوة شخصية أميره محمد وقوة الدولة، وفي ساعات الصباح الأولى تدب الحركة في أرجاء القصر وأقسامه ويتوافد كبار الموظفين والمستخدمين وقادة الجند والقائمين على شؤون الإدارة والمكلفين بالأعمال والخدم والحشم وكل ذي حاجة، باب القصر المهيب يفتح مصراعيه ليلجه أجناس الناس، وفي هذا الصباح الباكر وعلى غير العادة في البكور يدخله الشيخ مبارك الكلدي في كامل هيئته ووقاره وقد تمنطق بخنجره وتقلد سيفه

وبصحبته أخوه وأحد أعوانه ، حينما رآه القائد ابن عفار أيقن إن هذا الصباح يحمل في طياته الشر المستطير والشرارة التي ستبدأ الحريق الذي لا يعلم مدى أثره الا الله، ماذا يعمل يا ترى ؟ (هكذا حدَّث نفسه) أيبعث بالخبر إلى أميرته ؟ وماذا سيقول لها ؟ فزيارات الشيخ مبارك الكلدي للأمير كثيرة وهي تكاد كالعادة بعد أن وطىء الشحر ، ولكنني اليوم أشعر بأمر خفي ! أو بناقوس يقرع في داخلي يحذرني من أمر ما ؟ ماذا عسى أن أفعل ؟ لقد أخبرني الوزير ابن تايه بالكثير واطلعني على الكثير . . ورتبنا مع الأميرة أم محمد بعض ما ينبغي أن نفعله . . ولكن هذا الصباح يبدأ متوتراً أكثر مما ينبغي ؟ لا بد لي أن أخبر الوزير ابن تايه لعله يبدي رأياً أو يدبّر أمراً .

أما الشيخ مبارك الكلدي فاتخذ مكانه في الديوان الأميري ينتظر ريثما يحضر الأمير، كان الشيخ مبارك ساهماً بعض الشيء ولعله يرتب في ذهنه وفكره لأمور أو يقلب أفكارا لازمته طيلة

ليله فأرقته، مضت لحظات الانتظار سريعة وهو على هذا الحال إذ فضَّ بكارة الصمت صوت الحاجب معلناً قدوم الأمير محمد، نهض الجلوس في استقبال أميرهم فألقى السلام وجلس على عرشه في زهو الحاكم الواثق، حيوه جميعاً والقوا بين يديه كلمات الشكر والمدح والتملق، دار حديث عام يتلمس الأمير من خلاله أخبار الرعيَّة، وفي حقيقة الأمر أن الأمير يتلقى هذه الأخبار كتقارير يومية، إذ ينتظر من كل ذي شأن ولي عليه موافاته بأخباره، وهي عادة دأب عليها الأمير محمد فلا يستفتح مجلسه إلا بسماع هذه التقارير ومعرفة أحوال إمارته، وفي مجلسه هذا يصدر ويقرر الأوامر ويعطي التعليمات ويسترشد بآراء جلسائه ويعرف ميولهم، وفي هذا اليوم بالذات لم يسترسل الأمير في معرفة الكثير من التفاصيل بل استعجل محدثيه لاختصار أخبارهم وطرح المفيد، وايقن الحاضرون جميعاً أن الأمير محمد مشغولاً بأمر ما . . وهو ما تلقوه سريعا أذ أذن لهم بالانصراف وابقى لديه الشيخ مبارك الكلدي، وقال لحاجبه (لا تدخل علينا أحداً أبداً) .

أقترب الشيخ مبارك من الأمير حتى كادت أنفاس الأمير تصل إليه، قال للأمير بصوت خافت هامس: لعلك توصلت إلى قرار يا مولاي ؟

قال الأمير محمد وهو يحدق في عيني الشيخ مبارك: نعم يامبارك . . عزمت على غزو عدن وفتحها . . على ما تم بيننا من اتفاق.

تهلل وجه الشيخ مبارك بالبشر وسر غاية السرور فهاهو قد توصل إلى مبتغاه وما كان يخطط له وماهي إلا أيام وسوف يضرب أبناء عمومته آل أحمد في عدن وينكل بهم شر تنكيل، هي الأيام دول بين الناس، أمضي على بركة الله يا مولاي . . قالها بحرارة نفس وقوة عزم . . وعرف الأمير في عيني الشيخ الإصرار على الأخذ بالثأر وتأديب الخصوم . . قال الأمير: نعم على بركة الله . . ولنجتمع الليلة على تدارس الخطة وإعداد العدة وترتيب الجيش وليكن الأمر في غاية الكتمان . . ودعني أرتب أموري مع وزيري ابن تايه فقد جد الجد . . وافقه الشيخ مبارك وشد على يد الأمير ومضى

على موعد الليل، ولم يمهل الحاجب الأمير محمد ليسرح بفكره وخياله فيما عساه أن يرتبه ويعده وأن يتلذذ بثمرات النصر المرتقب من غزوه لعدن، فأطرق الباب معلناً بقدوم الوزير أبن تايه: الوزير على الباب يا مولاي . . ، أدخله قالها الأمير بصلابته المعهودة . . وشد صلبه وأفرد صدره وأراح يديه على حافتي العرش وحدق شاخصاً إلى الوزير المقبل عليه، القى الوزير التحية وأذن له الأمير بالجلوس فجلس بالقرب منه حيث أشار .

وباغته قائلاً: يا سليمان أني قد عزمت العزم على غزو عدن واتخذت قراري . . نهض الوزير ابن تايه منتصباً وقد باغته قرار الأمير على حين غره . . وما كان يحسب أن يتخذ الأمير هذا القرار بهذه السرعة دون أخذ الوقت الكافي للمدارسة والمشاورة . . وقال في شيء من الذهول :. ماذا يا مولاي ؟ . . حدجه الأمير بنظرة قاسية ونهره قائلاً: أجلس . .أما سمعت ما أقول . . جلس الوزير واشرأب عنقه إلى مولاه ليتأكد من صدق ما سمع . . أما

الأمير فأردف قائلاً: أنت سمعت ما طرحه الشيخ مبارك الكلدي في مجلسنا السابق ودار النقاش حول أمكانية غزو عدن . . وقد رأيت أنا أن فيه الخير الكثير لنا وهي الفرصة السانحة لامتداد رقعة دولتنا وعلينا اغتنامها خصوصاً وإن أسباب النصرة متوفرة . . وأنظر جيداً ما سوف نجنيه من فتح عدن وما سيعود علينا من خير .

ردَّ الوزير ابن تايه: ولكنك تعرف رأيي منذ الجلسة الأولى يا مولاي وأني مازلت أرى في هذا القادم إلينا من عدن يحمل لنا مالا نحمده، أحتد الأمير في نبرته وقال كمن يعاتب: نعم أعرف رأيك السابق وظننت أنك سوف تغيّره وتعود إلى جادة الصواب خصوصاً أن مشيئتي وافقت هذا الرأي وحببت الطموح إليه فكن ردفاً لي يا أبن تايه وأتبعني تفلح . . أريد دهاءك ورشدك فيما نحن عازمون عليه . . إن عدن مطمع كل حاكم وهاهي أتتني الفرصة سانحة لضمها إلى مُلكي فلما لا اغتنمها ؟

ـ صحيح يا مولاي عدن غنيمة كبرى، ولكن دونها صعوبات جمة لا يقدرها الا عاقل مدرك وخصوصاً إن آل طاهر في أوج قوتهم ولن يتركوا عدن لقمة سائغة لنا وهي قصبتهم وأهم مدنها، أما . .

قاطعه الأمير محمد في حدّة وغضب . . وأشار مهدداً بقبضة يده في وجه الوزير .

ـ ويحك يا سليمان . . ويحك . . أتريد تثبيطي وتثنيتي عن عزمي . . وقد عملت الفكر فيه أيام وليال، وأرّقني هذا الأمر وأتعبني حتى أطمئنت نفسي أخيراً واتخذت قراري . . وها أنت تقول لي أما . . أما . . أما ماذا بعد ؟

ـ يا مولاي . . إن الغضب في هذا الموقف يحجب حقيقة الرؤية ولا يوصل إلى قرار سليم وتصم دونه الأذن عن النصيحة . . وما أريد أنا إلا سلامة مولاي وسلامة إمارته . . وربما جاء قولي فيما لا يوافق هوى مولاي الأمير فليس هذا جرأة مني ولكنه وأجبي يحتّم علي أن أقف هذا الموقف وفاء لمولاي وإخلاصاً له ولواجبي .

أشار الأمير محمد بيده على وزيره بأن يصمت ويكف عن الكلام . . أخذ نفساً عميقاً وأطال زفرته . . جال ببصره في فضاء الديوان الأميري وكأنه يبحث عن فكرة طارئة أو رأي شارد . . وبعد أن رفع رجله اليمنى على اليسرى ووضع كلتا يديه على فخذه . . حدج الوزير ابن تايه بنظرة مراودة . . قائلاً له:

- يا سليمان . . إن الشيخ مبارك الكلدي أكد لي إمكانية الاستيلاء على عدن بأقل الخسائر والتكاليف . . وهو الخبير بعدن والعالم بها . . وأنت تعرف ذلك وتعرف حزمه وصدق عزمه . . كما أن له بها أنصاراً ينتظرون قدومه لينقضوا على الشريف علي وأعوانه كما يستطيع تأمين عدن بعد الاستيلاء عليها وتحصينها . . وأظن عدن تستحق بأن نبذل من أجلها الكثير والكثير . . فكيف أترك الفرصة وقد أتت عارية وأنا الفحل لها .

- يا مولاي . . الشيخ مبارك لا يرى في غزو عدن إلا الانتقام من أبناء عمومته وفي سبيل هذا يدفع بنا . . ميسراً لنا السبل بالقول

دون الالتفات الحقيقي إلى المخاطر والصعوبات.. ثم إنا مالنا والصراع اليافعي الدائر في عدن .. ولما نخاطر بأرواحنا وأموالنا .. وربما جر علينا هذا الصراع ويلات لا نعلمها .. نحن في غنى يا مولاي عن كل هذا.

أطرق الأمير برهة ثم قال: أردت أن تشد من أزري يا سليمان فإذا أنت تثبطني .. ولمست فيك من الخَور مالم ينكشف لي من قبل .. وكنت أظنك من صناديد الرجال فإذا أنت من رعاديدهم .. قصر طموحك هاهنا .. فآثرت السلامة .. أما أنا فعازم على ماعاهدت الرجال عليه وإني ماضٍ في حربي وفتحي لعدن حتى يمكنني الله منها .. وأما أنت فاغرب عن وجهي ولا تريني وجهك.

- طأطأ الوزير رأسه وغمغم :.أمر مولاي ..

وما كاد يخرج من القصر الأميري حتى أسرج خيله وأنطلق في أقصى سرعته.

.٥.

في الممر الواسع المؤدي إلى حجرة الأميرة سعاد (أم محمد) خطرت مغنية القصر بشرى تتهادى في مشيتها وتتمايل كغصن خيزران طري وهي تترنم طرباً بأغنية الشاعر (برك الشول):

زوري إذا سمحت ظروفك زوري

وأسقيني من ريقك يا زهر الجوري

وكانت خلفها ياسمينة تحدقها بنظراتها وتشتعل غيظاً، فهذا الشعر الذي تتغنى به هو اصلاً لها ومرسل إليها من قبل الشاعر برك الشول، ولولا خيانة خادم القصر سالمين الذي سلم النص الشعري لبشرى لميله إليها لكانت هذه الأغنية من نصيبها ولا سيما وقد خصها

بها الشاعر برك الشول تغزلاً فيها وعشقاً، ولم تدرك نفسها ياسمينة الا وهي تزدري بشرى متهمة إياها بالسرقة والسطو فقالت محتدة.

- تبجحي يا سارقة لا وفقك الله . .الجمال جمال الشعر لا جمال صوتك.

توقفت بشرى في وسط الممر والتفتت بغنج إلى ياسمينة لترى مدى غيظها وحنقها ومدى قوة استثارتها لها فهي تتوقع ذلك بل وتتقصده للنيل من ياسمينة والكيد لها، وانفرجت أساريرها عن رضا بما حققت من ذلك، ووجهت إليها كلماتها مغنية:

غيري لو سمحت ظروفك غيري **والله بالغيرة لن تطيليني

فما كان من ياسمينة إلا أن زادت حنقاً وتلفظت بألفاظ القبح في خصيمتها بشرى، وردت بشرى بالمثل وتعالت أصواتهن بالخصام حتى وصلت إلى سمع الأميرة سعاد فهبت من مضجعها منزعجة وخرجت إليهن صارخة.

.قبحكن الله من وصيفات . . أبهذا القبح انتن ؟

صمتن الجاريتان الوصيفتان وطأطأتا رأسيهما خجلاً واحتراما للأميرة، ثم قالت الأميرة بحزم.

.سمعت كل ما دار بينكن من سوء أدب، أهذا يجعلكن هكذا ؟ لا اريد بعد اليوم أن أسمعكن تغنين بهذا الشعر . . أفهمتن أم لا ؟

هزت الوصيفتان رأسيهما وتمتمن معاً: أمرك مولاتي .

همهمت الأميرة بكليمات لم تفقها الوصيفتان وارتدَّت إليهن سائلة: أين نور ؟

قالت بشرى : نور يا مولاتي تناجي القائد صالح بن عفار في طرف الحديقة.

.أبن عفار أفي هذه الساعة ؟ ويحك يا نور . .

قالت بشرى وقد هيئت نفسها لذلك: أأجرّها إليكِ من شعرها يا مولاتي ؟

.ويحك يا بشرى ابن عفار خطيب نور ولعله أراد ان يحملها رسالة لي؟ ولكني أريده لأسمع منه . . أذهبي إليهم واخبريه أني أريده وأدخلوه غرفة الاستقبال. . هيا اذهبي وبسرعة. . وعودي إلى هيا .

رفعت بشرى طرف ثوبها المخملي وانطلقت إلى حيث أمرتها مولاتها الأميرة سعاد في استدعاء القائد صالح بن عفار، أما الأميرة فقد استدارت إلى الوصيفة ياسمينة وجذبتها من كتفها إليها، وقبل ان تنطق تفحصتها بنظرات عاتبة ،ثم قالت بصوت متهدج:

.ألم أنهيك يا ياسمينة من قبل عن الاتصال بالشاعر بركة الشول ؟

.بلى يا مولاتي . . وأني من يومها لم أتواصل معه ولم أحدثه .

قالت الأميرة بكلمات حازمة:

.ولكنك تأخذين منه شعره وتتغني به ، فعليك أن تصدّيه وأن لا يجد في نفسك إليه ميل ، الشول رجل متزوج ولديه أولاد ولكنه عابث

يتشبب بالنساء ليرضي نزواته وصبواته، والله لولا محبة أبني الأمير محمد له لطردته وابعدته عن القصر حتى لا يفسد علي جواريي .

طأطأت ياسمينة راسها موافقة مولاتها ممتثلة واردفت قائلة:

.والله ما ملت إليه ولكني كبقية الناس يعجبني بعض شعره فقط .

وانفرجت من بين شفتي الأميرة ابتسامة رضا، وقالت لها: هكذا أحب أن تكوني الياسمينة السامية على أدران القاع وملوثاتها .

وما أن أتمت كلامها حتى ولجت إليها وصيفتاها نور وبشرى يخبراها بوجود ابن عفار في غرفة الاستقبال مثلما أمرت، أشارت على نور وياسمينة بتجهيز مأدبة خفيفة للضيف، وقالت لبشرى: أتبعيني وقفي على الباب، ثم مضت إلى غرفة الاستقبال حيث كان ابن عفار منتظراً، طرقت بشرى الباب ونادت معلنة بوصول الأميرة . .

ـ الأميرة سعاد أطال الله عمرها . .

نهض ابن عفار واقفاً مطأطأ رأسه شاخصاً إلى الأرض، ولجت الأميرة سعاد إلى غرفة الاستقبال ومهدت لها بشرى اريكة الجلوس وانسحبت إلى عتبة الباب واقفة، تربعت على اريكتها وأشارت على ابن عفار بأن يجلس، جلس وهو يتمم (أسعد الله مولاتي) حدَّقت به في نظرة خاطفة تستطلع ما وراءه ثم هزت رأسها وقالت :

.مرحبا بك يا صالح ما وراءك أيها القائد ؟

.كل خير إن شاء الله يا مولاتي . . ولكني عجلت إليك لاطلعك على ما عزم عليه الأمير محمد ؟

شدت انتباهها إليه وتهدج صوتها بوقار أميري .

.وما عزم الأمير محمد ؟

.غزو عدن يا مولاتي .

.ماذا تقول أو قرَّر ذلك أم حديث عابر ؟

. بل قرر ذلك وكان اجتماعه الصباح بالقادة العسكريين ومن حضر من أجل الاعداد لذلك .

نهضت وهي مستشيظة غضباً ، خطت خطوات وئيده وهي مطرقة رأسها ، نهض ابن عفا ر واقفاً كالمشفق على الأميرة من وقع الخبر ينتظر ما ستقوله له وتأمره .

وهي على هذه الحال برهة انتصبت أمام ابن عفار قائلة:

. ياصالح ابني محمد يعلم رفضي لهذا الأمر فقد أوضحت له خطورته وصعوبة تنفيذه وتحقيقه، ولاسيما وأن الدولة الطاهرية في أوج قوتها . . ولكن كيف وافقه كل من في المجلس ولم يبدوا أي اعتراض ؟

.إلا الوزير أبن تايه يا مولاتي كان رافضاً لغزو عدن وأخذها من الطاهريين لأسباب أوردها . . ولكن الأمير محمد رفضها واعتبر ذلك خوراً من وزيره فطرده من مجلسه .

.أو طرد ابن تايه من مجلسه ؟

.نعم وحذَّره بأن لا يقرب القصر ولا يدخله حتى يأذن له .

حوقلت الأميرة سعاد ضاربة كفها الأيمن بالأيسر ودار بخلدها كبر تعبئة الشيخ مبارك الكلدي لأبنها الأمير محمد وتزيين غزو عدن له، وبقت برهة صامتة تقلب الأمور في فكرها ولم يقطع ذلك عليها إلا صوت بشرى وهي تقول لها :

.المأدبة يا مولاتي . .

أشارت إليها الأميرة بأن تقدّمها وتضعها بين يدي القائد ابن عفار وأن تصب له أقداح القهوة، وأشارت إليه بأن يتفضل بالأكل والشرب، أما هي فضلت تذرع الغرفة ذاهبة آيبة تقلب الأفكار لعلها

تهتدي لحل هذه المعضلة ليكف أبنها الأمير محمد عن غزو عدن، أقبلت عليه مواجهة فنهض لها واقفاً، فوجَّهت إليه كلامها قائلة :

.اسمع يا ابن عفار ما سيقدم عليه الأمير محمد خطير جداً . .وسوف التقيه الليلة لثنيه عن عزمه هذا لخطورته وبعد عدن الكبير عن الشحر وصعوبة امداده ورفده، وربما غداً أحتاج لك والشيخ سليمان بن تايه إذا استشكل الأمر فكن قريباً من الحديقة وأخبر الشيخ سليمان بأن يجتهد الليلة ليجد لنا مخرجاً مما نحن فيه.

انحنى القائد صالح بن عفار محيياً الأميرة متمتما لها :

.أمر مولاتي وسأكون غداً في نفس الموعد في مكاني . .

خرج مسرعاً في الممرات دون أن يلتفت يمنة ويسرة ولكن عيون نور تترصده من خلفه وفي محجريهما شوق كبير وحنين.

## ٦.

جلست الأميرة أم محمد على اريكتها الوثيرة في غرفتها الخاصة تقلب الأفكار وتستعرض الطرق الممكنة في اقناع ابنها الأمير محمد عن العدول عن عزمه لغزو عدن، كانت تتنازعها الهواجس من كل صوب حتى كادت أن تعيى بها ولولا أنها استدركت أمرها هامسة لذاتها .أيه يا أم محمد لن يعييك إقناعه وأنت الحكيمة المدبّرة ؟، لعل في مواجهته والسماع منه ما يولد الحجة في الرد عليه، فلتكن المواجهة إذن .

وبينما هي في خلوتها سارحة إذ علا صوت المؤذن يشق عنان السماء بجلاله ووقاره داعياً لصلاة الظهر، لملمت أطراف ثوبها

المخملي ووضعت على رأسها غطاءها الحريري ذو اللون الأخضر ونادت جاريتها نور فلبت نور ندائها .لبيك مولاتي . .

.أذن المؤذن فلتستعدوا للصلاة . .

قالت نور .. لبيك مولاتي ، حالاً . .

.واذهبي إلى الأميرة (منى) زوجة ابني محمد وأخبريها بأن تصلي معي في جناحي ، فأني أريدها بعد الصلاة.

.أمرك مولاتي . .

وانصرفت نور في خفَة الغزال الشارد هاتفة في الممرات لجواري القصر (استعدوا لصلاة الظهر، الأميرة في المصلى هيا . .هيا) ثم دلفت إلى جناح الأميرة (منى) حاثة الخُطا إليها حتى وقفت بين يديها قائلة:

. السلام على مولاتي منى ، مولاتي الأميرة أم محمد تطلبك للصلاة معها ، فإنها تريدك بعد الصلاة . .

اشرأبت الأميرة منى بعنقها الطويل الزاهر متطلعة على تقاسيم وجه الجارية نور وعينيها لعلها تستشف شيئاً من طلب أم محمد لها ومقصدها، ولكنها لم تجد في تقاسيم نور ما يفصح عن شيء مستور فتمتمت قائلة:

.سوف أتوضأ وآتي . .

عادت نور إلى جناح سيدتها أم محمد وأخبرتها بإبلاغ أمرها ثم انصرفت تستعد للصلاة بالوضوء فأسبغته وحثت الخُطا إلى المصلى ترتب شئونه وتفرش ما تبقى من سجَّاد المصلى، وماهي إلا لحظات حتى توافدت جواري القصر، ثم قدمت الأميرة أم محمد في خشوع تام واستوت مصلية ركعتي سنة الظهر القبلية وقبل أن تتمهما قدمت الأميرة منى فنهضن الجواري لمقدمها وافسحن لها الطريق إلى الصف الأول، فحيَّت عمتها أم محمد حين فرغت من صلاتها مسلمة عليها ومصافحة ومقبلة يديها، فأشارت أم محمد للجارية بشرى بإقامة الصلاة فأقامتها وتقدَّمت الأميرة أم محمد تأُمُّ بهن .

بعد الصلاة مباشرة نهضت الأميرة أم محمد، وضمت يد الأميرة منى إلى يدها مصطحبتها إلى غرفتها وهي تتمم:

.أيه يا منى أشتاق لك ولا أطيق غيابك أكثر من ليلة. .

. وأنا كذلك يا عمتي، ولولا انشغالي يوم أمس والبارحة لكنت بجانبك كعادتي لا أفارقك.

.وبما كان انشغالك؟

. انشغلت بما أوصاني به زوجي الأمير محمد من ترتيب بعض شئونه الخاصة. .

.الأمير محمد ابني كم هو مرهقني . .ليته يطيع أمري. .

طأطأت الأميرة منى رأسها وهي تفكر في كليمات عمتها أم محمد محاولة استنباط ما تنوه إليه عمتها وهي تلج وإياها إلى حجرتها، واتجهن إلى الأرائك فجلسن متقابلات، واستأنفت الأميرة سعاد (أم محمد) كلامها قائلة للأميرة منى:

.هل حدثك الأمير محمد عن عزمه الأخير؟

.لعلك تقصدين عزمه على فتح عدن؟

.نعم هو ذاك . .

.أخبرني عنها وعن أنها فرصة لا تعوَّض أتت إليه لترفعه إلى مقامات عالية من المجد والسؤدد . . وتوسعة رقعة ملكه تجعله ملكاً عظيماً . .

.وهل وافقتيه على ما قال؟

.هو أخبرني برفضك الشديد ومعارضتك وتخوفك من غزو عدن وكان رأيي من رأيك وتخوفي من تخوفك . .ولكني رأيت فيه الإصرار على ما عزم عليه.

.هكذا هو ابني عنيد فيما يرى وإقناعه صعب ولكني أردت اليوم مساعدتك في إقناعه وثنيه عما أراد . . فوالله لا أرى فيما هو قادم عليه إلا الهلاك الماحق وضياع ملكه.

وبينما هن كذلك في حديثهن إذ دخلت الجارية شمس وصيفة الأميرة منى مخبَرتها بأن الأمير محمد عاد من ديوان ملكه إلى جناحه، فوجَّهت الأميرة منى جاريتها إلى تحضير مائدة الغذاء لزوجها ولها ولعمتها أم محمد، واتفقن على توحيد صوتيهما في إقناع الأمير محمد .

استأذنتا الأمير في الدخول فأذن لهن، وحين رأى أمه انكب يقبل يديها مستبشراً ومتمتماً:

.أمي الغالية . .حبيبتي . . روحي . .

.لو كنت روحك صحيح ما كان هجرتني أيام؟ ! !

.أنتِ معي يا أمي في قلبي ساكنة . .ولولا انشغالي بترتيب أمور الإمارة المهمَّة وازدحام فكري بها لرأيتني بين يديك صباحاً ومساء . .

سحب الأمير أمه من يدها وهو يقبلها وأجلسها على الأريكة وجلس بجانبها يباسطها ويلاطفها ويسري عنها، وهو بهذا يستعطفها لتنزل عند رأيه وتقرُّ له بفتح عدن فتأييدها ومباركتها له من مقدِّمات النصر ورضا الرَّب، ولكنها باغتته بقولها:

.يا محمد أتعصيني وتصر على هواك وتضرب بكل رأي حكيم عرض الحائط؟

بهت الأمير محمد من قولها فهي بلا شك حانقة منزعجة فملامح وجهها لم تخفي ذلك وإن حاولت التحكم في إظهار مشاعرها، ولكنه تدارك ذلك وقال لها:

. لا يعصي أمه إلا العاق.. وحاشاي أن أكون كذلك يا أمي.. فلولا رضاكِ عليَّ لما تنعمت يوماً وأحداً ولما ذقت السَّعادة كلما أبصرتك عيناي..

. إذاً أترك غزو عدن فلا أنا راضية بذلك ولا مني زوجتك ولا كبار عقلاء الإمارة. .

تنحنح الأمير محمد وتقرَّب من أمه آخذاً رأسها مقبلاً له، وقبض بيديه يدها اليمنى وأخذ يقبلها وقال:

- رضاكِ يا أمي غايتي ومنايَ، وأخذ عدن واستعادتها من الطاهريين إنما هو المجد الذي أسعى إليه لقيام مملكة آل أبي دجانة العظيمة العريضة من عدن إلى أرض المهرة، هذا هو تطلع أبي وأجدادي وقد أتتني الفرصة مواتية فكيف لي أن أتركها ؟ ولو تركتها لتكوننا سبة وعار عبر التاريخ، فهل ترضين لي يا أمي بأن أكون كذلك ينعتوني بالجبن والخور والاستكانة إلى النساء ؟

. ولكنها مغامرة غير مضمونة ومحفوفة بالمخاطر، وآل طاهر في عنفوان دولتهم؟

.لا يا أمي إن كل خطوة محسوبة، شهر مضى ونحن نتدارس طرق وخرائط الغزو ودرسنا كل تفاصيل الفتح المبارك إن شاء الله، فلم نترك ثغرة ألا وسددناها بخطة ولا تركنا منفذاً للعدو إلا وعملنا احتياطاتنا أننا على أتم الاستعداد .

.يا محمد هم أكثر جنداً وأنتم أقليَّة، وبين عدن والشحر مسيرة شهر فلا مدد يصلكم عند الحاجة إذا ضاق عليكم الخناق .

.لا لا . . آل طاهر قاعدة ملكهم رداع وتبعد عن عدن كثيراً، ووالييهم على عدن قليل العُدَّة والعدد، وليس لهم بين العدنيين قبول فهم يكرهونهم، ولدينا في عدن أنصارنا آل كلد وبطون أخرى من قبائل يافع سوف تتحالف معنا بواسطة الشيخ مبارك الكلدي وهو الخبير بعدن ومكامن ضعفها وقوتها ، وقد أوثقت معه المعاهدات ومع بيت زياد وبيت محمد ومن قبائل المهرة الأخرى .

.إذا أخذت جيشك سوف تنكشف قاعدة ملكك الشحر، وسوف تكون فرصة سانحة للمتربصين من آل فارس الذين يطمحون لانتزاع

الملك منا، وقبائل سيبان الذين قتلت مقدَّمهم العام الماضي وسيستغل آل كثير أيضاً ذلك.

.لا تقلقي يا أمي وضعنا لكل شيء حسابه، ستبقى في الشحر حامية قوية على رأسها القائد الشجاع صالح بن عفار، وقد استملت إلى جانبنا قبائل الحموم وهي سوف تقف معنا عند الطلب، كما أني أكثرت من العيون الراصدة حتى لا تغيب عنكم كل شاردة وواردة، وقد جعلت عليهم صهري أحمد بن زياد رئيساً يوجههم ويتلقى منهم الأخبار.

وسوف أفوضك بتولي إمارة الشحر حاكمة عني، وسوف أترك الشيخ ابن تاية وزيراً لك، وأريد دعاءكِ ورضاكِ عني، فلا فتح إلا برضاكِ؟

أطرقت الأميرة ببصرها للأرض كمن يتدبر أمراً ويقلبه، وأيقنت ألا مفر من إقدام ابنها على غزو عدن، وليقضي الله أمراً

كان مفعولاً، ثم رفعت رأسها شاخصة إلى ابنها محدّقة في عينيه قائلة:

. ما دمت واثقاً من سلامة تحركك فليكن توكلك على الله واعتصامك به واستعانتك عليه فالله خير ناصراً . . وليكن فتحاً مباركاً كما نأمل ونرجوه بتيسير الله . . يسر الله أمرك وإني راضية عليك فتوكل على الله.

أشرقت عيني الأمير محمد بالفرح وانكب يقبل أيادي أمه واصطحبها تتبعهم زوجته الأميرة منى إلى مائدة الطعام المعدَّة لهم.

.٧.

في ساعات الصباح الأولى من يوم السبت كانت الحركة في قصر الحكم الأميري دؤوبة وسريعة، كل الخدم وجنود حراسة القصر قد هبُّوا في ترتيب وإعداد القاعة الكبرى في القصر استعداداً لعقد الاجتماع الهام الذي دعى إليه الأمير محمد والذي سيعقد بعد ساعات، وسوف يحضره كبار رجال الدولة وأعيان الشحر ومن دعاه الأمير لحضوره من أهل الخبرة والدراية، وكان المسؤول الأول عن الإعداد والتنسيق والتحضير والخدمات هو القائد صالح بن عفار فكان في يومه شعلة من النشاط كثير التحرك دقيق التوجيهات والتعليمات يضع كل ما يلزم في مكانه المطلوب، وما كاد النهار ينتصف حتى توافدت إلى القاعة كبار الشخصيات وأحداً تلو الآخر، يستقبلهم القائد صالح بن عفار ويرشد كل وأحد إلى مكانه، وكان أول

الوافدين الشيخ سليمان بن تايه وزير الدولة فأخذ مكانه في القاعة، ثم تلاه قاضي الشحر الشيخ عبد الرحمن باصهي والشيخ مبارك الكلدي وأخيه وضباط الكتائب التسعة وربابنة السفن والحاج منصور كبير تجار الشحر ثم تلاهم الكثير من الرجال حتى كادت القاعة على وسعها أن تكتظ بهم، وماهي الا لحظات حتى صاح الحاجب من على باب القاعة مبشراً بقدوم الأمير محمد:

.صاحب العظمة الأمير محمد . . والأميرة سعاد .

نهضت القاعة عن بكرة أبيها في استقبال الأمير محمد وأمه شاخصة أبصارهم إليهما، وقد بدا الأمير محمد مهاب الطلعة متوشحاً سيفه فارداً صدره في زهو وكبرياء يحاكي الشموخ وينبئ عن عزيمة وإصرار، وعلى يساره أمه وكأنها في شرخ الشباب، يبزها طولها وعرض منكبيها، وقد ارتدت فستاناً أنيقاً أحمر اللون قاني من الحرير ومطرَّزاً بقصب الذهب تجر ذيله وراها، وعلى رأسها وضعت غطاء وردي اللون يستر شعرها وتنتقب به على فمها نقاباً خفيفاً.

جلس الأمير محمد على كرسيه وأجلس أمه ثم أشار على الحاضرين بالجلوس فجلسوا، ولمح للخدم فهبُّوا يقدِّمون له وللحاضرين أقداح القهوة بالبن اليافعي الأثير لدى الأمير، وفي أثناء شربه للقهوة تجاذب الحديث مع الوزير سليمان بن تايه ومع القاضي عبدالرحمن باصهي يستلطفهم ويستميلهم ليكونوا عوناً له، وما أن أتم شرب قدحه من القهوة ، حتى رفع صوته متحدثاً في الحاضرين مبدئاً بالبسملة ثم حمد الله وأثنى بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال :

. إني جمعتكم اليوم لأخبركم بأن التاريخ سيكتب غداً بأن الأمير محمد بن سعيد بن مبارك بادجانة قد نهض بقومه إلى معالي المجد وطلب العلا بهمة وعزيمة ونصرٌ من الله وفتح كبير، وذلك في القرن التاسع الهجري وبالتحديد عام ٨٦٢هجرية، حيث قاد بنفسه جيشه لفتح عدن واستعادتها من آل طاهر الرداعيين الغاصبين لها ولأرضها وملكها، استعادة عدن مجد ننشده لأن

عدن بوابة الجنوب الغربية وأهم موانئه، فمن ملك عدن ملك جنوب الجزيرة بأجمعه وسهَّل عليه اخضاع الجنوب بأكمله، ولا حياة لنا واستقرار في الملك والدولة إلا باستعادة عدن وإغلاق أبوابها في وجوه الطامعين الغزاة، من جيران أرضنا أو من القادمين عبر البحار.

وإني أعددت العدَّة وقدرت المدة وأحكمت الخطة وسددت الثغرة وعملنا لكل شيء حسابه مع القادة والنقباء والسادة أهل الرأي والمشورة، وإني راحلٌ فجر الغد عبر البحر في تسعة مراكب وثلاثة آلاف مقاتل بكامل مؤنتها، وإني أرى عدن بإذن الله وقد أصبحت في أيدينا وخلصناها من آل طاهر المحتلين لها.

وهذه أمي الأميرة سعاد بنت معاشر سوف تخلفني في حُكم الشحر والقيام بالإمارة وبشؤونها فاسمعوا لها وأطيعوا ،وليقم الوزير الشيخ سليمان بن تايه بوزارته كما عهدناه مخلصاً ناصحاً، وليقم القائد صالح بن عفار بحماية الإمارة وتأمين طرق التجارة وحفظ الأمن،

وليقم الشيخ عبد الرحمن باصهي بالقضاء والفصل بين الناس بشرع الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وكل من كلفناه بمهمة وحملناه مسئولية فليقم بها خير القيام ولتكونوا جميعاً عوناً للأميرة سعاد في تسيير شئون الإمارة .

حين انتهى الأمير محمد من حديثة طلب أقداح القهوة وأمر أن تدار ثانية على الحاضرين، وانحنى بجسمه جانباً يحدّث أمَه وتحدّثه في ثواني معدودات حتى استوى في جلسته ورفع صوته قائلاً:

.فلنستمع الآن لكلمة سمو الأميرة سعاد . .

وأشار إليها بأن تُلقي كلمتها، فاعتنقت واشرأبت وابتدرت حديثها قائلة:

. الحمدلله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمدلله الكريم العظيم، الحمدلله القوي المتين، الحمدلله الذي جعلنا من خير الأمم، وأتباع أكرم

الرُّسل سيد العرب والعجم، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، أمّا بعد . .

فقد سمعتم حديث وكلام الأمير محمد ووعيتم توجيهاته وأوامره، وعرفتم عزمة على الفتح وإني والله لمطمئنة في نصر الله وتوفيقه فليمضوا في سبيل الله غزاة فاتحين معتصمين به ومتوكلين عليه، وما النصر إلا من عند الله.

وليطمئن الأمير محمد بأننا سنكون لهم العون والمدد وخير السند وإنا رهن إشارتهم وطوع بنانهم في كل ما يأمر به الأمير، وهذه الإمارة وقد ولآني عليها لحين عودته سالماً غانماً منتصراً بإذن الله، ستكون في رعايتي وحفظ الله، وإني سوف أسير في الناس بشرع الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأريد للعدل بأن يكون أساس إمارتنا كما أراد وثبتها أمراء بني دجانة، وأحكم قواعدها زوجي الأمير سعيد رحمه الله، ومن بعده أبني الأمير محمد الذي سيتوج سلطاناً عظيماً على عرب الجنوب بعد فتح

عدن وضم أرض ابين وشبوة إلى قاعدة ملكه وسلطنته، فادعوا الله له التيسير والتوفيق والنصر المبين .

وإني أحث رجال إمارتي بأن يشمّروا عن سواعد الجد والاجتهاد في استكمال ما بدأه الأمير محمد من بناء للإمارة وتوسعة رقعتها فلم يبقى لنا من حضرموت إلا بعض مدن الوادي الميمون التي ستخضع لنا بعد الفتح الكبير، فهذا أوان الاجتهاد ولكل مجتهد ومخلص عندنا حظوة وجزاءً شكوراً، ولكل متوانٍ وفاسد غِلظة وعقاباً وثبوراً، وليعلم الحاضر الغائب بهذا، ومن أراد أن يسأل الآن أو يتحدَّث فليتفضل ؟

استفاق الحاضرون من حديث الأميرة سعاد وقد أخذ البابهم وتفكيرهم وتهامسوا فيما بينهم معجبين ببلاغة وحكمة الأميرة، وأول من وقف متحدّثاً هو وزير الإمارة الشيخ سليمان بن تايه فقال بعد البسملة والحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والثناء على الأمير محمد والأميرة سعاد:

. كنت في خوفٍ من الفتح فأزال سيدي الأمير محمد ذلك الخوف بحنكته وإصراره وبدَّده بما أعد باقتدار وجدارة واثقاً في كل خطوة يخطوها دارساً لها وواضعاً لكل الاحتمالات حلاً وتسهيلا، وزاد اطمئناني ما لمسته من سيدتي سمو الأميرة سعاد من انشراح وارتياح، فامضوا ونحن معكم جنودكم المطاعة وسيوفكم التي تضربون بها الأعداء، وليثق سيدي الأمير وسيدتي الأميرة بأننا مثلما بايعناكم وعاهدناكم سنظل أوفياء لكم وللإمارة مادامت الروح تجري في أجسادنا، نصركم الله وحقق أمانيكم وأمانينا .

ضجَّت القاعة بتأييد كلام الوزير مردّدين (سنظل أوفياء . . سنظل أوفياء) .

شكرتهم الأميرة وحيَّتهم، وأعلنت عن انتهاء الاجتماع وأذنت لهم بالانصراف واستبقت على الوزير الشيخ سليمان بن تايه والقائد صالح بن عفار، وحين خلت القاعة إلا منهما والأمير محمد قالت لهم :

. فجر الغد سيتحرّك بإذن الله الأمير محمد بمراكبه من ميناء الشحر، وإني أريد يا ابن عفار بأن تؤمن المدينة وطرقها ومداخلها بأن تضع الجند متقلدي سيوفهم من هذه الليلة إلى أن آمرك بأمر آخر، وفي عصر الغد اريد منك بأن تحرك دوريات الجند في كتائب متفرقة تجوب السوق وشوارع الشحر الرئيسية وتصل ببعضهم إلى مشارف تبالة وزغفه لتُري الناس قوتنا وهيبتنا، فانصرف الآن وأعمل على ذلك، وأنت يا شيخ سليمان من ضحى الغد أريدك تحضر هنا لمراجعة دواوين الدولة، فانصرف الآن وأعمل على ذلك.

وبعد انصراف ابن عفار وابن تايه تبسَّم الأمير محمد مسروراً من جدِّ أمه وحكمتها وبراعة سياستها، فقبَّل يدها راضياً عنها واصطحبها إلى جناحها في القصر الأميري.

.٨.

لم تنم الأميرة سعاد ليلتها وإن كان يغالبها النعاس فتغفو قليلاً وتصحو، فقد كان فكرها مشغولاً تتنازعه أمور الغزو والرحلة إلى عدن عبر بحر العرب الذي يستغرق أياماً كثيرة إذا سنحت له ظروف الإبحار ومتغيرات الأجواء، وهذا الليل في سكونه وخشوعه يثير الاشجان فالكل قد أخلد إلى النوم والدعة والراحة ولعل الأمير محمد في تلك الليلة مثل أمه لم يطرف له جفن ولم تغمض له عين، ففجر الغد ينتظره ليبحر ويشق لجج المحيط ويصارع الأمواج حتى يصل عدن آمناً ويسر الله له أسباب الفتح والنصر، وفي الهزع الأخير من الليل بدأت تدب الحركة في القصر وخارج القصر، وأخذ الجند في إعداد بقية المؤن وأشيائهم الخاصة وفرشهم وأغطيتهم وحزم حقائبهم، كما نهض الأمير محمد فاغتسل وصلى ركعات قبل آذان الفجر ثم نادى خادمته

لتشحن له حقيبته بما أعدَّه من ثيابه وأشيائه الأخرى، وما هي إلا لحظات حتى شق سجاف الليل آذان الفجر داعياً إلى الصلاة فتأهب كل من في القصر وأستعد لأمر الانطلاق، ونهضت الأميرة سعاد إلى جناح ابنها الأمير محمد لتودعه وتشد من أزره فوقفت منتظرة خروجه من غرفته، أما الأميرة منى فقد أشغلها زوجها بترتيب أموره وهي معه بجانبه تلبي أوامره وتنفذ رغباته، حتى اذا انتهت وقفت تناظره وتتأمله في هيئته وقد تقلد سيفه ونصب عمامته الأميرية استعداداً للذهاب والخروج، اقتربت منه في غنج ودلال وقد عزَّ عليها فراقه ووداعه فانسابت من عينيها قطرات من الدمع رقرقت على صفحة خدها الناصع فزادته جمالاً وبهاءً وهي تبدو كحبات اللؤلؤ الأصيل، لمحها الأمير محمد بطرف عينه واستدار إليها بكليته وأخذ يديها وسحبها بحنان إلى حضنه فتوسَّدته واجهشت بالبكاء، رفع براحة كفه رأسها وأحدق النظر فيها فإذا به بدا ككأس حافتاه شفتان عسليتان كأنه لم يراها من قبل فأنكب عليها راشفاً حلاها ماصّاً زلالها واتبعها بضمة تأوهت

الأميرة منها تأوه العاشقة المستهامة ، وما أراد الأمير أن يتمادى فأمسك مشاعره وخاطب زوجته الأميرة منى :

. استودعك الله يا حبيبتي الذي لا تضيع ودائعه ، وإني ماضٍ في سفري فادعي لنا بالتوفيق والسداد والنصر بإذن الله تعالى . .

قالت وهي تغالب نفسها وتظهر جلدها :

. منصور بإذن الله يا سيدي وحبيبي ، سمَّح الله طريقكم ويسَّر دربكم ونالكم مبتغاكم . . سيغلبني الشوق إليك ولكن سوف أصبِّر نفسي إلى أن تعود إليَّ سالماً غانماً بعون الله وفضله .

. هو كذلك يا حبيبتي وسيظل الشوق ينازعني إلى أن أعود إليك سالماً إن شاء الله .

استدار إلى المرآة لينظر إلى هيئته ثم توجه إلى الباب خارجاً فإذا أمه الأميرة سعاد على الباب في انتظار خروجه، تقدَّم إليها وأخذ يمينها وقبلها قائلاً لها :

.استودعك الله يا أمي . . أدعي لنا بالنصر والتوفيق . .

. منصور بإذن الله يا بني . . وفقكم الله . . سوف أودِّعك إلى الميناء .

.لا يا أمي سنتجه الآن إلى الجامع لنصلي الفجر أولاً ثم نصعد سفننا ونبحر . . فلا داعي لمرافقتنا إلى الميناء .

.إذاً سأرافقك إلى باب القصر مودعة . .

.لكِ ذلك . .

حينما توجه الأمير محمد إلى الجامع دعت الأميرة سعاد نساء القصر وجواريها لإقامة صلاة الفجر جماعة كعادتها فتهافتت النساء إلى المصلى وأمت بهن صلاة الفجر وأطالت في قنوتها داعية لابنها وجيشه بالتوفيق والسداد، وما أن انتهت من الصلاة والدعاء حتى توجهت إلى شرفتها صاحبة معها الأميرة منى ، هذه الشرفة تطل على البحر الذي يبعد عن القصر بحوالي نصف كيلو متر

وبين قصرها والبحر ينتصب مسجد الجامع، هذا المسجد الشهير الذي أسَّس بناءه في السنة العاشرة من الهجرة النبوية فهو من أقدم المساجد في جنوب شبه الجزيرة العربية، ولم يطل على وقوفها لحظات حتى خرجت أفواج المصلين من الجامع وفي مقدّمتهم الجند توجهوا إلى شاطيء البحر حيث الميناء وزوارق النقل تنتظرهم لنقلهم إلى السفن الراسية فيه، كانت حركة الميناء دؤوبة يرتفع ضجيج الجند شيئاً ما، وكل ما ركب الزوارق فوجاً من الجند إلى سفنهم كلما قل الضجيج حتى سكنت الحركة مع بزوغ أشعة الشمس وبيان ضوء النهار استكملت السفن ركابها وأطلقت أشرعتها وبدأ إبحارها شيئاً فشيئاً حتى غابت عن الأنظار في منتصف النهار.

عادت الأميرة سعاد إلى غرفتها لتستعد لتناول فطورها اليومي، شيء من خبز الذرة (القضوض) الذي تحُبّه وتستملحه مع العسل والزبدة وسمك الغودة اللذيذ، لكن ذلك الصباح لم يستسغ لها الأكل فتناقت منه نتفاً لسد الجوع وإقناع النفس بالطعام، ثم انصرفت

تهيىء نفسها للخروج إلى مقر الحكم وديوان الإمارة فهناك ينتظرها الكثير من العمل والمهام الجسيمة، نادت وصيفتها نور فأقبلت نور ملبية سيدتها فأمرتها بأن تهيىء لها فستانها وتتجهز ، توجهت الأميرة إلى الحمَّام تسبقها جاريتها بشرى التي أعدت لأميرتها الماء والصابون والغسة الغيليَّة وزيت الشعر ومشطها ومنشفتها وقباقيب الحمَّام وكل مستلزماته، ذلك الجسد الأنثوي البض لم يشخ وقد تقادمت به السنين فما زال في حيويته، حينما تزوجها الأمير سعيد وهي لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، وأنجبت ابنها محمد وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وها هي خمسة وثلاثون سنة هي عمر محمد جهدت في تربيته ورعايته وحرصت على تعليمه وتلقينه شؤون الحكم وسياسة الناس، فغدا أميراً مهاب الجانب شديد البأس خبيراً في سياسته، كانت هذه الخواطر تجري في فؤادها فدفعتها حين نهضت واتزرت ودعت بشرى لتجفف شعرها وتمشطه، ففعلت بشرى ما تعودت عليه من عمل صباحي لأميرتها، وأعدت نور فستان الأميرة الأصفر الحريري الموشى بخيوط الذهب والمزخرف بالنقوش الوردية، ارتدته

الأميرة وهي تزهو به والجارية نور تشد وتحكم أزرار الفستان وترتب متعلقاته حتى إذا اكتملت أتت بالوشاح الأبيض لتلبسه الأميرة فأفردت لها الأميرة ذراعيها وأطبقتها بعد لبسه فكان فيها جميلاً أنيقاً وزانه غطاء الراس الوردي رونقاً وجمالا، ثم اكتحلت ورشَّت قليلاً من العطر النفاذ فأصبح حالها كزهرة الياسمين في فصل الرَّبيع .

.٩.

حين خرجت الأميرة من جناحها إلى الرواق المؤدي إلى قاعة الإمارة كان خادم القصر سالمين يمهد لها الطريق وخلفها جاريتيها نور وبشرى، وعند باب القاعة نادى الحاجب لإعلام من في داخل القاعة:

.سمو الأميرة سعاد . .

نهض من في القاعة لدخول الأميرة فابتدرتهم بالسلام فردوا التحية إلى أن وصلت إلى كرسي الإمارة فجلست وأشارت لمن في القاعة بالجلوس فجلسوا، وأمرت بالقهوة فصبت في أقداحها المعهودة، جالت بنظرها في الحاضرين وكانوا أربعة، الوزير الشيخ سليمان بن تايه والقائد صالح بن عفار وأمين دار المال الشيخ

عبدالله بافضل وأحمد بن زياد المسؤول عن التخابر وأمن الإمارة، فافتتحت كلامها بالثناء على الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قالت:

.جمعتكم في أول يوم لتوليَّ الإمارة نيابة عن ابني محمد حتى يعود منتصراً غانماً بإذن الله، وذلك للنظر في حال الإمارة ومراجعة الأوضاع العامة الخاصة بالإمارة ومصالح الناس حتى لا نترك ثغرة أو ثُلمة تعيب علينا في تولينا الإمارة، فأنتم مثلي تماماً مسؤلين على ما اؤتمنتم عليه فاحسنوا النصيحة وأصدقوا العمل وليبارك لنا الله فيما أردناه وعملناه ، وأول ما يستتب به الأمر هو الأمن وقد وجهتك بالأمس يا ابن عفار بأمر فما عملت فيه ؟

قال ابن عفار: عملت به يا مولاتي . . ففي ساعات الصباح الباكر وجَّهت الجند في جماعات ووحدات متوالية تجوب الشوارع العامة في الأسواق وما بين الحارات، ووجَّهت فرقة الخيالة بالطواف على المدينة والتوجه إلى قلاع المراقبة لحث الجنود هناك على الانتباه

واليقظة ومعالجة كل ما يريب إن حدث، وفي عصر اليوم أيضاً سوف تجوب فرقة الخيالة في جولتها الثانية كل ذلك إظهاراً للقوة وإعلاماً بأن الأمن مستتب ولن نغفل عن أي شيء يعكِّر الصفو العام.

قالت الأميرة وقد أعجبها فعل القائد صالح بن عفار:

.أحسنت يا ابن عفار وكن دائماً على أُهبة الاستعداد، فلا مجال للغفلة أو التراخي، وأريد منك أن تتفقَّد أحوال الجُند خلال الأيام المقبلة وتوافيني بأخبارهم وأحوالهم في معيشتهم وهل أجور الخدمة تكفي مؤنتهم وما مقدار حاجتهم، كما أريدك أن تتفقَّد مستودعات السِّلاح وتأتيني بأحوالها وحاجة الإمارة، وأرسل من يتفقَّد أحوال الجُند في كافة حدود إمارتنا من حيرج حتى وادي دوعن فلا تترك شيئاً.

قال لها سمعاً وطاعة يا مولاتي واستأذن بالانصراف فأذنت له.

ثم توجَّهت بالحديث لأحمد بن زياد قائلة:

. أحمد يا ابن زياد كلفك الأمير محمد بمهمَّة أمن الإمارة وقد عملت معه في ذلك حتى خبرك عارفاً ماهراً فيما أوكل إليك، فما هي خطتك في العمل؟

أعتنق أحمد بن زياد وقال مخاطباً الأميرة:

.أسعد الله مولاتي الأميرة . . بتوجيهاتكم الكريمة جلت الفكر والبصر فيما يعزز عمل التخابر وتوجيه العاملين فيه الوجهة الصحيحة، وترك كل الترتيبات المكشوفة للعامة مثل إعفاء المخبر (الحندبور) فقد كشف أمره، فالتغيير أمر ضروري واستبدال المخبرين أو تغيير أماكن عملهم، ليس هناك في عاصمة الإمارة ما يدعو للخوف أو القلق إلا بعض الساخطين على الإمارة فلا يرضيهم شيء وهم عاجزين عن فعل أي شيء ولكن استمرار هذا السخط يولِّد كراهيَّة عند الناس وخصوصاً إذا شحن هؤلاء ذو علم وفقه.

أنتبه الوزير الشيخ سليمان بن تايه لحديث أحمد بن زياد فقال مقاطعاً:

.لعلك تقصد السيد جعفر العلوي ؟

. نعم هو من أقصده، فهو لا يكف عن مهاجمة آل أبي دجانة وتركنا له في سفاهته سيجعل الناس تزداد كرهاً لنا، فينبغي أن يؤدَّب ويكون عبرة لغيره حتى يرتدع سواه.

تفهَّمت الأميرة لحديث ابن زياد، ووجَّهت حديثها للوزير سليمان بن تايه:

.وأنت ما تقول في هذا أيها الوزير ؟

. السيد جعفر يستميل الناس وهو مسموع الكلمة ونقده لاذع وسخطه غليظ، وتأديبه أمر ضروري حتى يرتدع ويتعقَّل فرأيي من رأي الشيخ أحمد بن زياد.

.جميل جداً ما تحدثتم به في شأن السيد جعفر العلوي وهو العالم الفقيه المؤثر في الناس، فكيف لنا أن نؤدِّبه ولا نخشى غضب العامة، ولكن لنقطع لسانه بالإحسان إليه والاعتراف بفضله ومقامه،

وإني رأيت أن أجعله قائماً بالأوقاف في الإمارة فهو الرجل المؤتمن، فلتحضروه لي بعد صلاة الظهر لأفاتحه في ذلك، أمّا بقيَّة مهامك يا ابن زياد أرجو أن تعمل عليها من الآن، وقد منحتك الصلاحيات الكاملة في ترتيب وتنفيذ خطتك الأمنية ورصدت لك مبلغاً من المال تأخذ منه للحاجة وهو موجود عند أمين دار المال الشيخ عبدالله بافضل.

نهض ابن زياد محيي أميرته مؤكداً لها العمل على ما كُلِّف به، ثم مضى ذاهباً إلى عمله.

تنفَّست الأميرة سعاد نفساً عميقاً وتمتمت قائلة:

- الحمدلله انتهينا من الجانب الأمني وتطمئنا عليه، والآن جاء دورك يا شيخ عبدالله بافضل.

- فما وضع المال وبيت المال في الإمارة يا عبدالله؟

تأهب الشيخ عبدالله للحديث ورفع بيديه السجلات التي وضعها بجواره واضعاً لها على فخذيه وربت عليها قائلاً :

.أحضرت معي السجلات يا مولاتي حتى تطلعي على ما فيها من حركة الوارد والصادر والقبض والانفاق، ففي السنوات الماضية كان فائض المال كثيراً، بخلاف هذه السنة التي تكاد الخزينة فيها تصفر وذلك لكثرة الانفاق على فتح عدن وإعداد المؤنة التي كلفت الإمارة الكثير، رغم أن الأمير زاد ضريبة الدخل ورفع العشور وأحدث الرسوم الأخرى، وحتى تتمكن الآن من تغطية العجز في الخزينة علينا زيادة الموارد يا مولاتي . .

أيقنت الأميرة بأنها أمام وضع عصيب معالجته تحتاج لحكمة وروِيَّة ، فلا يمكن إثقال كاهل المواطن بالكثير من الضرائب بل ينبغي أن يخفف عنه حتى يستطيع أن يعمل في وضع أفضل يقود إلى تحسين الوضع المعيشي وازدهاره، فأرادت أن تسمع رأي الوزير ابن تايه، فخاطبته قائلة:

.وأنت ماذا ترى في هذا الوضع أيها الوزير وكيف يجب معالجته ؟

قال الوزير: الوضع يا مولاتي يحتاج لدراسات عميقة تبيّن سلبيات الوضع وتضع معالجاته وذلك بالجلوس مع أهل الخبرة والعلم والمعرفة في كل شأن على حدة.

قالت الأميرة وقد مسها شيء من القلق:

.ما قلته يا شيخ سليمان ينطبق على مسار العمل اليومي من قبلكم لا انتظار الأزمات لنفكر في الحلول والمقترحات. . ما نواجهه اليوم هي أزمة طارئة تحتاج لحلول ناجعة وفاعلة فلا يمكن أن نواجه حاجة المواطن لعيش كريم بعدم تلبية حاجاته، فنحن في الإمارة لم نأتي إلا لخدمة هذه الأمة وتيسير سُبل العيش الكريم لها، وإني أطلب منكما أن تجلسا مع بعض من هذه الساعة لتتدارسا الخطط الطارئة المقترحة التي ستساعد في إغناء خزينة الدولة وتخفيف العبء على كاهل المواطن وتوفير الخدمات له، فانهضا وأتياني غداً بكل ذلك.

نهض الشيخان مؤكدين التزامهما بتعليمات الأميرة سعاد ومواقاتها صباح الغد بما يقدّمانه من حلول وخطط .

وبعد انصرافهما بقليل أعلم الحاجب الأميرة بوصول السيد جعفر العلوي فأذنت بدخوله، فأقبل بهي الطلعة طويل القامة، يلبس جبَّته البيضاء ويتوشَّح شاله الأخضر وعلى رأسه عمامته البيضاء ذات الذِّبالة الخاصة بعمائم الفقهاء، حيَّا الأميرة فحيَّته مرحِّبة به وأذنت له بالجلوس فجلس، وبادرته بالحديث قائلة:

. دعيتك اليوم يا سيد جعفر لحاجتنا إليك فقد منحك الله علماً وفقهاً ومحبة في قلوب الناس فانبريت معلماً وداعياً وإني أكبر فيك همتك وقوة عزيمتك وجهرك بالصدق وقول الحق، فالحمد لله الذي جعل في مواطني شعبي فاضلاً مثلك يعلمهم ويزكيهم ويقوم بما لا يستطيع غيره القيام به .

.إنما أنا معلم أطفال يا سمو الأميرة وحسبي هذا . .

. نعم أنت معلم أطفال والأطفال رجال الغد وعماد الأمة ومستقبلها، ولهذا دعوتك فإني اخترتك قائماً للأوقاف في الإمارة ومتولياً للإفتاء والدعوة وراعياً لمدارس تحفيظ القرآن والفقه والكتابة والقراءة، وقد خصَّصت للأوقاف داراً شرقي الجامع لتكون مقراً لإدارتك وإشرافك على أئمة المساجد، وقد جعلت لك جعلاً (٥) دنانير شهرياً وحصاناً لتمتطيه في تنقلاتك.

قبل السيد جعفر على مضضٍ تعيينه في إدارة الأوقاف وهي إدارة جديدة مستحدثة في الإمارة، فقد كان الأهالي هم من يهتمون بالمساجد وأوقافها ولا يتدخَّل الحاكم في شيء منها إلا ما ندر.

## .١٠.

انقضى أسبوعاً كاملاً على تولي الأميرة سعاد إمارة الشحر، خلاله شعر أهالي الشحر ببشائر عهد جديد يحل عليهم وذلك من خلال إقبال الأميرة سعاد على مواطنيها واللقاءات المكثفة معهم بكلِّ شرائحهم المجتمعيَّة تتلمَّس من خلالها حاجاتهم الضرورية ومتطلباتهم المعيشيَّة، وتتلقى اقتراحات ذوي الخبرة منهم، واصبح ذلك المنجز حديث الأهالي في مجالسهم ومسامراتهم وتجمعاتهم في الأسواق والأماكن العامة، وبدأت تدب روح جديدة في المدينة، فهذه السوق اليوم لم تكن كسابق عهدها خاملة ضئيلة، بل هي اليوم كثيرة الحركة يرتادها الناس وهم يتأهبون لمرحلة قادمة سعيدة، تغمرهم سعادة بتولي الأميرة سعاد الإمارة، حتى الحاج منصور أضحى اليوم أكثر بهجة وإشراق، حينما أتى ليفتح متجره وجد عماله وجماعة من الناس في انتظاره

وهي حالة لم يألفها منذ زمن طويل، فما بالها تحدث اليوم، أوجس في نفسة خيفة، بأن يكون قدم متأخراً عن موعده على ما أعتاد ولكنه تفحَّص الوقت فوجده مثل كل يوم يأتي فيه رغم أنه دخل السوق مبكراً وسلم على عددٍ من أصحابه التجار في طريقه كعادته الصباحيَّة، افتتح الدكان مسلماً ومازحاً وملاطفاً عماله وزبائنه من داخل المدينة وخارجها، قضى حاجاتهم وازدادت الحركة مع تقدُّم النهار، كانت الوجوه تترادف عليه أشكالاً وأنواعاً حتى أطل عليه صديقه الأثير السيد جعفر العلوي، فنهض واقفاً مرحباً به قائلاً:

.مرحبا بالسيد الزين . . أوه . . وينك أسبوع ما شفناك؟

تبسَّم السيد جعفر ابتسامة تحمل ورائها ما يفرح وضغط على يد صديقه الحاج منصور قائلاً:

.والله لو كنت بغيتنا لجيت صليت في مسجدنا حتى فرض واحد . .

. أوه الأسبوع لي عبر كله خبخبه وشطون وعاد نحن إلا رضنا يا سيد . .

. إن كانها إلا خبخبه وراء الدنيا باتتعب كثير يا حاج، يخلص العمر والشغل عاده ما أنقضى .

أمتعض بعض الشيء الحاج منصور ولكنه استدرك بألا يعكر ذلك مزاجه وجمال يومه البهيج، فقال معقباً :

. المهم أنت أيش أخبارك طمنا عنك ؟

. لا الحمد لله أخباري طيبة وسعيدة إن شاء الله وباتسمع بما يسرُّك إن شاء الله .

. هت كلام . . الظاهر إنك أصبحت راضي على آل فارس ؟

. هههههه رضاي وغضبي يتعلق بسلوكهم لا بشخوصهم فإن أحسنوا رضينا عنهم وإن أساءوا غضبنا منهم . . والحمد لله هذه الأميرة

سعاد بدأت تتحسَّس أحوال الرعيَّة وتشوف متطلباتهم وباتحل مشاكلهم، وأنت عارف بهذا ؟

.صدقت يا سيد . . وأنا دعتني وحدثتني وحدثتها واستشارتني وأفدتها إن شاء الله.

وأخذ الحديث بينهما يتشعَّب ويتطرَّق لأكثر من اتجاه، فتناولا مآلات غزوة عدن وإمكانية نجاحها وفشلها، ومصير إمارة آل أبي دجانة الذي سيتوقَّف على ما تؤل إليه هذه الغزوة من نصر وهزيمة، ثم تطرقا لرؤى الأميرة سعاد وتطلعاتها للرقي بالإمارة وخدمة الرعيَّة وتمكين الإمارة، وتضاربت الآراء فيما بينهما واحتد الحوار شيئاً ما في تفاعل صريح، ولم يفيقا إلا على صوت المنادي (مطرب الإمارة) وهو يقرع الصحن النحاسي ليعلن للناس تعليمات الأميرة، فشدَّ انتباههما وخرجا إلى باب الدكان ينظران للمنادي وقد تجمَّع حواليه الناس ليسمعوا الإعلان والبيان، فرفع المنادي صوته قائلاً:

. يكون معلوم لكل الناس . . والحاضر يحكي للغائب بأن سمو الأميرة سعاد بنت معاشر أميرة الشحر أقرّت الآتي :

**رقم وأحد :** تلغى جميع الضرائب الجديدة المحدثة العام الماضي لدعم المجهود الحربي لفتح عدن .

**رقم اثنين :** ترفع الجمارك عن المواد الغذائية الأساسية والأدوية النافعة .

**رقم ثلاثة :** يعين السيد جعفر العلوي قائماً لأوقاف الإمارة ومسئولاً عنها .

**رقم أربعة :** يعين الحاج منصور الشحري شيخاً للتجار وسوق الشحر .

**رقم خمسة :** يعين الشيخ سعد كرامة دعكيك . . شيخاً للصيادين .

**رقم ستة :** يعين مبارك علي مسجدي . . شيخاً للفلاحين .

**رقم سبعة:** كل من كان على وظيفته السابقة يستمر فيها عاملاً محسناً .

**رقم ثمانية:** سوف يتم حفر ثلاث آبار جديدة للماء الحالي والشرب في الأماكن المحدَّدة لها، وعلى الأهالي المساعدة وتقديم الدَّعم لعمال الحفر حتى ينتهوا من عملهم.

هذا والله ولي التوفيق .

بانتهاء الإعلان ساد الهرج بين الناس وأخذوا يتبادلون ثناء الإعجاب والاستحسان فيما بينهم فالقرارات الجديدة تعيد توازن الحياة المعيشيَّة في المجتمع وترفع عن كاهل الأهالي الكثير من التكاليف الباهظة، وتسهِّل مجريات الحياة المعيشيَّة اليوميَّة والحركة التجارية في الإمارة مما يعود بالنفع الكثير على البلاد والعباد .

أما الحاج منصور والسيد جعفر العلوي فقد عادا أدراجهما إلى داخل الدكان حيث كانا يجلسان وابتدر الحاج منصور الحديث بعد

لحظات صمت وتفكر فيما تم الإعلان عنه آنفاً حيث قال وهو يبتسم: قبل كل شيء مبارك عليك المنصب الجديد يا سيد جعفر .

.الله يبارك فيك . . والله إنه تكليف وليس تشريف ياحاج منصور . .ويعلم الله بأني رفضت هذا من ساعته. . ولكن إلحاح الأميرة سعاد وتعهداتها لي جعلني أقبل على مضض. . نسأل الله المعونة والتوفيق.

.وأنت أهلاً لها يا سيد جعفر . .لاشك في تمكنك وقدراتك في تولي هذا الأمر سوف يعود بالنفع للبلاد .

. نسأل الله ذلك. . وأنت أيضاً أعانك الله على مشيخة التجار وإدارة الأسواق. .

.نعم والله يا سيد . . الشحر كبرت ولم تعد تلك القرية المحدودة وسوقها المحدود، فقد توسَّعت وزادت وأصبحت حارة الرَّملة مأوى للكثير من

الصيادين وحارة الحور اختط فيها الكثير من أهل التجارة والمال بيوت فارهة، كما زاد نشاط التجار المهرة في محلتهم المعروفة.

.صدقت.. وكل ذلك يحتاج للمزيد من التنظيم والترتيب والإدارة وهذا ما تسعى إليه الأميرة سعاد لتجعل من الشحر مدينة زبينة حسب قولها.. ياحاج منصور انتهى عهد الحندبور.. وأتى عهد جديد.

هكذا ختم كلامه ونهض من مجلسه السيد جعفر العلوي مستأذناً بالانصراف وراجياً لقاء آخر يجمعهما معاً.

-١١-

في قاعة الحكم الفخمة ملأت الأميرة سعاد كرسي العرش الأميري كعادتها اليومية في ازدهاء وإباء ومن حولها جاريتيها نور وبشرى وحراسها وخدمها وعلى الباب الحاجب الذي لم يمهلها كثيراً إذ جاء يخبرها بأن القائد صالح بن عفار بالباب يطلب الإذن فأذنت له بالدخول والقدوم عليها، فدخل القائد صالح بن عفار مسلماً وخاضعاً للأميرة معلناً الولاء والطاعة، بادلته الأميرة التحيَّة وأذنت له بالجلوس فجلس على يمينها بالقرب منها، فبادرته بالحديث قائلة: كيف حال الأمن في الإمارة يا ابن عفار؟

. الأمن يامولاتي في أحسن حالة.. البارحة عادت سرايا الجند من وادي دوعن ومن المشقاص بعد مكوث ما

يقارب شهر من تواجدها هناك لتعزيز الأمن وضبطه فلم تجد هناك ما يقلق السكينة العامة فلا تقطع ولا سرقات ولا جرائم تذكر، وانشغل الناس بأعمالهم في الزراعة والتجارة والصناعة فهي اليوم أحسن من أي وقت مضى .

. الحمد لله الذي مَنَّ علينا بنعمة الأمن . .والشحر كيف حالها الآن ؟ وماذا يقول الناس ؟

. الشحر لبست حُلة جديدة يا مولاتي لم يمض شهر بعد على توليكِ وقد تبدّلت أحوالها وازدهرت أسواقها وكثرت السفن في مينائها زادت الحركة وكثرت البركة وأصبح الناس في خير . .حتى قال الشاعر برك الشول:

قل للأميرة سعاد . . يهناك في أيام زينة

الشحر يا خير بلاد . . شحر سعاد الزبينة

ضحكت الأميرة سعاد مسرورة مما سمعت، فعقّبت قائلة:

. لله در الشاعر برك الشول يحسن الكلام ويتقنه . .إذا انتهيت من مشاغل الإمارة أدعيه لي لأسمع شعره وأطلع على جديده . .

أومأ إليها برأسه القائد صالح متمّماً السمع والطاعة يا مولاتي .

فأشارت إليه مداعبة مبتسمة قائلة :

.هيه يا ابن عفار مضت ثلاث سنوات وأنت عازباً أما مللت وتعبت ؟

ثم أردفت غامزة: أفلا تشتاق لمن تحب وتهوى ؟

ارتبك القائد صالح من حديث الأميرة الذي باغته في حضور معشوقته نور الذي كان يسارقها النظر وهو في حضرة الأميرة ، فقال مستدركاً ومبتسماً :

.منتظر رضاء وإذن مولاتي لعلها تتداركني قبل أن أفوت . .

قهقهت الأميرة فشاركها الموجودين بقهقهة خفيفة، وخيمت لحظات أنس ووجد في القاعة الوقورة ولكنها لم تطل حيث حسمت الأميرة الأمر قائلة:

.يا ابن عفار هذه نور ربت في حجري منذ أن ماتت أمها وقبل أمها مات أبوها عيسى المهري أحد صناديد المهرة الشجعان كان صديقاً حميماً لزوجي سعيد، قاتل معه وانتصر له وقتل شهيداً في معركة الوادي رحمه الله، فهي بمثابة ابنتي وإني أزوجك إياها لدينك وخلقك وحُسن ولائك فإذا جهَّزت بيت الزوجيَّة فأخبرني حتى أزفها إليك.

. أمر مولاتي خلال خمسة أيام سيكون البيت جاهزاً بكل أثاثه وأدواته.

.إذاً فليكن زواجكما في منتصف الشهر.

قالت هذا الأميرة ونظرت إلى وصيفتها نور التي طأطأت رأسها خجلاً وتلفعت بغطاء رأسها، ولولا التزامها بعملها لانزوت هاربة من القاعة خجلة فرحة، في هذه اللحظة دخل الحاجب مستأذناً دخول الشيخ أحمد بن زياد، فأذنت له، فدخل في هيبته العسكرية وألقى السَّلام والتحيَّة على الأميرة سعاد، فأشارت عليه بالجلوس على يسارها، فجلس منتصباً كمن يتهيأ لأمر عظيم، فقالت له الأميرة:

.ما ورائك ياشيخ أحمد أراك متحفزاً لقول شيء ما ؟

. نعم يامولاتي هناك أمر مهم . .ولكن ليكن الحديث بيني وبينك والقائد صالح. .

حينها أمرت الأميرة سعاد بخروج كل من في القاعة، فخرجوا إلى البهو الملاصق لقاعة الحكم.

قالت الأميرة وقد توجهت بكلتا طاقتها إلى الشيخ أحمد بن زياد: هات ما عندك ياشيخ أحمد ؟

.نعم يا مولاتي . . لقد القينا القبض على ثلاثة من الرجال لهم تخابر مع آل كثير في الوادي وأخضعناهم للتحقيق والاستجواب وعرفنا منهم تخابرهم منذ ما يقارب السنة وكانوا يرسلوا كل أحوال الإمارة إلى آل كثير، وعرفنا منهم أن آل كثير يعدُّون العدة لغزو مدينة الشحر للانقضاض على الإمارة، كما علمنا منهم تسريبهم لخبر غزو الأمير محمد لعدن وموعد رحيله وعدد سفنه وجيشه المتجه لعدن .

.وما نتائج تحليلاتكم وتعقبكم للعمل الاستخباري هذا ؟

.من متابعتنا ومراسلتنا مع عيوننا في سيئون علمنا بأن الأمير الكثيري على تواصل مع الأمير الطاهري، وتيقنّا بأنه أخبره بعزم وتوجه الأمير محمد لغزو عدن، ولكن لا نعرف استعدادات الطاهريين، ونخشى أن يعملوا كمين للأمير محمد وجيشه أو يكونوا على أُهبة الاستعداد في انتظار قدومه؟

.لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. . هذا ما أخشاه وقد انقطعت عنّا أخبار الأمير محمد فلم يوافينا بتحركاته وأخباره منذ رحل . . آه آه الشك

يقلقني وجهلي بحال الأمير وجيشه يزيد توتري . .عدن بعيدة ولا عيون لنا فيها ولكن لتجهز لنا فارساً تثق فيه يتوجه إلى عدن متخفياً ويأتينا بالأخبار من هناك .

.هذا ما أفكر فيه يامولاتي . .وبأمرك سأنفذه اليوم.

. على بركة الله . . ولنتدبَّر الآن أمر آل كثير. . فأطماعهم في إمارتنا لن يوقفها إلا القوة فماذا ترى يا ابن عفار ؟

ـ ونحن على أُهبة الاستعداد يامولاتي لقمع أي أطماع تحدِّق بإمارتنا .

ـ فماذا أعددت ؟

ـ كان في حسابي تلك الأطماع وكنت أتوجَّس خيفة من غدر آل كثير وانقضاضهم على إمارتنا في ظل غياب الأمير محمد ومعه صناديد جيشه، فعملت طوقاً على حدود الإمارة وعزَّزته بالرُّماة على

مداخل السبل ومنافذها وجعلت حراسات متقدّمة على الطريق مهمتها حراسة الطرق ومراقبتها والإخبار بكل ما يريب في حال حدوثها وتحركها .

ـ خير ما عملت يا ابن عفار . .وأريد أن تكتب رسالة إلى الأمير الكثيري وتقول له :

(من الأميرة سعاد بنت معاشر أميرة الشحر والساحل الحضرمي ووادي دوعن إلى ناقص الشرف والمروءة بدر بن عبد الله بن علي الكثيري نحذّركم من مغبّة تآمركم على إمارة آل أبي دجانة، فقد ألقينا القبض على عيونكم بالشحر وإننا والله سنفقؤها، وإذا لم تكف عن هذا التآمر ضدنا اعلم أننا سنأتي لتأديبك إلى عُقر دارك وإنا على ذلك لقادرين ومن أنذر فقد أعذر) .

أنفذ هذا يا ابن عفار حالاً . . وياشيخ أحمد عزّز عيوننا في الوادي ولتكن يقظاً على مدار اليوم والليلة، ولا تغفل فكل خطأ صغير سيترتب عليه تبعات كبيرة ، أذهبا الآن في حفظ الله .

انطلق القائدان في تنفيذ مهامهما، وتوافدت الحاشية إلى الأميرة وأمرت باستدعاء الوزير سليمان بن تايه للتدارس معه في شئون الإمارة.

ـ ١٢ ـ

انتصف الشهر وحان زواج القائد صالح بن عفار من الوصيفة نور، وأرادت الأميرة سعاد أن تجعل من هذا العرس رسالة إلى رعاياها وأعدائها على قوة إمارة آل أبي دجانة وثباتها واستتباب الأمن ورغد العيش فيها، فكان لها ما أرادت حين جعلت مراسيم العرس ضخمة فخمة استمرت ثلاثة أيام بلياليها في احتفال وبهجة وموائد مبسوطة للعامة في وجباتها الثلاث، وموائد الأنس مبسوطة أيضاً فللنساء مراسيمهن داخل القصر وفي حديقته الواسعة، وللرجال ألعابهم وأهازيجهم وسمرهم في ساحة القصر، فكل أحياء الشحر وارياقها وبواديها شاركت بفعالية قصوى فكان العرس مهرجاناً لم تعهد مثله الشحر عرساً، وكانت الشحر تعيش أحلى لياليها في بهجتها وسرورها، فالأميرة أغدقت على الرعيَّة ورفعت عن كاهلهم

الكثير من الأعباء وكفَّت أيادي المتسلطين ممن يتبؤون مراكزا كبيرة في الإمارة فاستغلوها في أذى الناس والتضييق عليهم في حياتهم المعيشيَّة، وفي ظل حُكم الأميرة عرف القضاء باستقلاله وعدله فردَّت الحقوق المغتصبة لأصحابها وانتصف المظلوم من الظالم، فبارك الله في هذه الإمارة باستقامة الأميرة ونزاهة القضاء، ولم تشهد الإمارة عهداً كعهدها في رخائه وحركة تجارته وورود السفن إلى ميناء الشحر فالامتيازات الأخيرة الممنوحة للمستوردين والمصدِّرين جعلت نشاط الحركة التجارية والصناعية يزداد، ولأول مرة يتكفل تجار الشحر ومن حولها بتمويل مشروع تعبيد طرق القوافل وإقامة السَّقايات وحفر الآبار على طول الطريق الممتد إلى آخر حدود الإمارة المتصل بمدن وادي حضرموت العريض.

في أيام العرس الثلاثة زهت مدينة الشحر ولبست ثوب الفرح المطرز برضى الأميرة وسعادتها بزواج ربيبتها ووصيفتها الأثيرة نور وهي تتلقى من الأهالي آيات التهاني والمباركة، إلا أن

الأحداث تأبى أن يتم ذلك الفرح ويستمر، فباغتتها وهي في غمرة وذروة فرحها بما يكدّرها ويعكر صفوها، فحينما دخل عليها في قاعة الإمارة الوزير سليمان بن تايه والقائدان صالح بن عفار وأحمد بن زياد أوجست في نفسها خيفة وارتابت من حضورهم معاً فلم تعهد ذلك منهم، وملامحهم وتقاطيع وجوههم توحي بأمر جلل، فأرادت أن تنهض لتبادرهم بالسؤال ولكنها فطنت لوقار الإمارة فاشرأبت بعنقها إلى الداخلين عليها مستطلعة، فبادروها بالسَّلام والتحيَّة فهزَّت رأسها وخاطبتهم قبل أن تأذن لهم بالجلوس.

ـ خيراً إن شاء الله ما جمعكم معاً؟ ماذا تحملون لي؟

نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض وكأن كلاً منهم يوكل الآخر بالحديث عن المجموعة، فأشارت إليهم بالجلوس فجلسوا على قبالتها بجوار بعض فقالت لهم.

ـ هل هناك ما يسوء من أخبار عن الأمير محمد وجيشه أيها الوزير؟

ـ نعم يامولاتي . . عادت اليوم أحد السفن الحربية للجيش الأميري وتلقيناها في الميناء وعرفنا من قائدها الربان سعد بن عيظه ما حصل للجيش الأميري في عدن، وقد أحضرناه إليكِ لتسمعي منه.

ـ أدخلوه بسرعة، ماذا تنتظرون ؟

دخل الربان سعد بن عيظه ووقف منتصباً أمام الأميرة وألقى التحيَّة، فبادرته بالسؤال.

ـ لما عدت وحدك ؟ أين الأمير محمد وأين بقية السفن والجيش ؟ أخبرني يا سعد ؟

ـ بعد قرابة شهر من المسير يامولاتي وصلنا إلى بحر عدن فكان البحر زعل والأمواج هائجة، وخور مكسر لم يكن آمناً من تلاطم الأمواج فأشرنا ربابنة السفن على الأمير محمد بأن لا يقدم إلى الخور وعلينا الانسحاب إلى داخل البحر أو نتحصن ببعض

الموانئ حتى يهدأ البحر ونحفظ سلامة السفن ، فرفض الأمير ذلك وأمر بسرعة التقدُّم لمباغتة العدو في عقر داره قبل أن يعلم بوصول سفننا إليه، فتقدَّمنا إلى حيث أشار إلا أن الموج لم يمهلنا فطوح بالسفن يمنة ويسرة فجنحت (٥) سفن على ساحل خور مكسر متباعدة الواحدة عن الأخرى، تحطمت منها ثلاث تحطيم كامل وبقت سفننا الأربع الأخرى تصارع الموج في مكانها، وكنا نحدِّق ونرى مصير إخوتنا وهم يتطايرون من سفنهم بعد تحطيمها، ورأينا جيشاً كامناً لنا انقض على من وصل سالماً إلى الشاطئ ورأينا الأمير محمد وقد طوَّقه جنود الطاهريين وأسروه ومعه الشيخ مبارك، وغرق في البحر عشرات من جنودنا وأسر الطاهريين البقية منهم ورأيناهم يحاولون الوصول إلى سفننا فتمنعهم الأمواج وهيجان البحر، وبقينا على هذا طوال النهار إلى أن غابت الشمس وهدأت الأمواج فأبحرنا راجعين ولمحنا سفن الطاهريين تتبعنا فتفرقنا في اتجاه الغُبَّة ومازلنا نبحر حتى أشرقت الشمس وبان الضوء فلم نرى أثر للطاهريين في تتبعنا ولم أرى بقية سفننا الثلاث التي

انسحبت معي ، وكنت أعرف جزيرة صغيرة بقرب عدن خالية من السكان ولا توجد بها حياة ولكنها مأوى آمن فالتجأنا إليها ومكثت بها يوم، ثم عزَّ عليَّ أن أعود إلى الشحر بدون أن أعرف خبر سيدي الأمير محمد ومصيره، فقرَّرت ومعي اثنين من رفاقي بدخول عدن متنكرين في زي وهيئة الصيادين ، فركبنا في زورق صغير وأبحرنا فيه، ودخلنا عدن ومعنا بعض الأسماك ذهبنا بها إلى سوق السمك، في سوق السمك هناك غوغاء وكلام كثير يقال بين الناس وكان حديث غزو عدن من قبل الشحارية على حد قولهم هو السائد ولم نعرف شيئاً ذا جدوى ، وبقينا هكذا نترقب إلى أن أتى صيادين من البحر معهم أسماك كثيرة فإذا هم من أهل الشحر وعرفت مقدَّمهم فالتقيته وعرفني ورحب بنا وأخذنا إلى بيته عزبة الصيادين متنكرين في زي الصيادين الذي دخلنا عدن به، وأول ما سألناه عنه مصير الأمير محمد إذا كان يعرف عنه شيئاً يقيناً ، فقال إنه لا يعرف إلا ما يقال عند عامة الناس، أما الخبر اليقين سنجده عند الحاج

عبدالله الحضرمي صاحب الدكان القريب منا، فذهبت أنا وإياه فقط حتى لا نثير الشّك لدى العيون الرّاصدة، وقال لي الحاج عبدالله الحضرمي بأن الأمير محمد وقع في الأسر حين جنحت به سفينته على شاطئ خور مكسر، وكان السلطان علي مترصد لوصوله فقد كان مستعداً بجيش كبير جاء به من رداع حين علم بغزو آل أبي دجانة لعدن ولولا الرِّياح الشديدة لشهدت عدن معركة كبيرة، فآل كلد منتظرين بدء المعركة للانقضاض على عدن من ثلاثة اتجاهات والجهة الرابعة مع جيش آل أبي دجانة القادم من البحر، إلا أن آل أحمد كانوا على علم بترتيبات أبناء عمومتهم فأخبروا السلطان فمدَّهم برجال وسلاح ساعدهم على تطويق عدن ومنع أي تقدُّم لآل مبارك، والأمير محمد وضعوه في سجن الخساف مكبلاً، أما الشيخ مبارك وأخيه فقد طافوا بهما شوارع عدن وصلبوهما أمام بوابة القصر السلطاني .

فقلت للحاج عبدالله أريد أن ألتقي بالأمير محمد فانزعج الحاج وقال لا يمكن مستحيل، فقلت له ليس هناك مستحيل ياحاج عبدالله ما دمت ستتدبر الأمر، أطرق برأسه الأرض وفكر برهة ثم قال: ربما نستطيع ذلك لو وافق طباخ السجن، فإني أعرفه فإذا رضي بأن يجعلك مساعداً له في توزيع الطعام على المساجين ويدخلك على الأمير.

- وهل قابلت الأمير هاه. .قل لي ( قالت ذلك الأميرة سعاد بلهفة كبرى وقلق لمعرفة حال ابنها ووضعه في سجن آل طاهر) .

- نعم يامولاتي نجحت الخطة ودخلت على الأمير محمد أقدِّم له الطعام فما عرفني ولم يحدِّق بي لانشغاله بحاله فهمست له . .

- مولاي الأمير محمد . .

حدَّق بي وعرفني فأشرت عليه بأن يخفض صوته فالحارس على الباب، قلت له :

ـ ما حالك سيدي ؟

ـ كما ترى . . وأخبرني كيف مصير بقية جيشنا ؟

ـ جنحت من سفننا خمس وغرق بعض الجند وأسر آخرون، أما السفن الأربع الباقية فرّقتها العواصف والأمواج والتجأنا للجزر المهجورة القريبة من عدن، ودخلت إلى عدن للسؤال عنك ومعرفة مصيرك والحمد لله الذي يسَّر لنا الحاج عبدالله الحضرمي الذي أوصلني إليك، فهل تأمرني بشيء .

ـ عودوا إلى الشحر وأخبروا أمي وبلغوها سلامي وألا تقلق عليَّ في السجن، ولتتفاوض مع آل طاهر على إطلاق سراحي وجميع الأسرى .

اغرورقت عيني الأميرة بالدَّمع وتأوهت على ابنها في ألم وخيبة رجاء، وقالت للوزير ومن معه:

ـ أجمعوا لي عصر اليوم أهل الشورى من القادة والمقادمة والمشايخ.

أشارت بيدها لانصرافهم فحيُّوها بانحناءة خفية وانصرفوا، بينما سارعن وصيفات الأميرة في سندها ومدها بالماء لتشرب فجلست وشربت واسترجعت قواها قبل أن تعود إلى مخدعها .

-١٣-

مضى عام ونيف والأمير محمد مازال في قبضة آل طاهر وسجنهم في عدن، كل مفاوضات الأميرة سعاد لم تفلح مع آل طاهر فما زال السلطان عامر بن طاهر يطلب تسليم مدينة الشحر مقابل الإفراج عن الأمير ومن معه، ومازال الطاهريون يعدُّون العُدة لاحتلال الشحر، وأما الأميرة فقد صرفت همتها خلال هذه الفترة في تعزيز أمن الإمارة وتسليح الجيش الأميري وزيادة عدده، وأيضاً الاستنجاد بالقبائل المنتسبة للإمارة وبالعامة للدِّفاع عن الإمارة من الأخطار المحدقة بها محلياً وخارجياً، وقد أظهرت من الدَّهاء في تسييس الأمور واستمالة الرَّعية أكثر مما يعهده فيها عامة الناس، فكانت دفاعات الشحر فيها من القوة ما يهيبه الأعداء، وهذا ما رآه جيش آل كثير عندما أتى غازياً للشحر بقيادة بدر بن عبدالله بن علي الكثيري

فأراد أن يحاصرها ولكنه قفل راجعاً من حيث أتى محمّلاً بخيبة الأمل والظفر، ورغم طول الفترة الممتدَّة خلال سنة وبضعة أشهر لم تفلح مفاوضات الأميرة مع السلطان الطاهري عامر بن طاهر في إطلاق سراح الأمير محمد، وقد فاوضتهم على تسليم الطاهرين خراج ميناء الشحر فرفضوا وأضافت إليهم أموالاً فرفضوا إلا بتسليم المدينة، ولكن أخيراً وبعد أن أيقن الطاهريون أن أخذ الشحر لن يتأتى إلا بالحيلة عرضوا على الأميرة بأن يتقاسموا مدينة الشحر نصفها الغربي لهم ونصفها الشرقي لآل أبي دجانة فوافقت الأميرة بعد حين رأت فيها أن لا خيار لديها إلا القبول ومناصفة المدينة معهم، وحين جمعت مجلس الشورى والأعيان وعرضت عليهم عرض الطاهريين ثار الجدل والاعتراض من بعضهم وقبل بعضهم العرض وأقره، وكان اعتراض المعترضين هو بأن آل طاهر الرداعيين هم أصحاب مكر وخداع ولا يمكن ائتمانهم والركون إليهم، ولكن لا حيلة للأميرة سعاد فالطاهريين أعدوا العُدة خلال العامين الماضيين لغزو الشحر واحتلالها، ولن تصمد في

مقاومتهم وصدهم قوات الجيش الأميري لضعفهم وقلة عددهم مقارنة بجنود آل طاهر، فقبلت الأميرة بذلك، وزحفت جنود آل طاهر إلى مدينة الشحر وقد كانوا على مشارفها في أثناء المفاوضات فدخلوا الشحر من الجانب الغربي واستولوا عليه، إلا أنهم لم يوفوا بإطلاق سراح الأمير محمد، وغضبت الأميرة سعاد واستعدَّت لمقارعة الطاهريين، ولما رأى الأعيان وصول الحال إلى هذه الدرجة من الغليان وحتمية قيام المعركة الفاصلة تدخلوا لدى الأميرة والسلطان عامر بن طاهر الذي قدم إلى الشحر والتحق بجيشها المقيم في الجانب الغربي منها، وتمخضت هذه الوساطة أخيراً على تسليم المدينة للسلطان عامر بعد أن يصل الأمير محمد إلى بلدة (حيرج)، واستعدَّت في ترتيب أمورها وحاشيتها وجهزت سفينتها الأميرية لنقلها إلى حيرج حين تتأكد من وصول الأمير محمد إليها، وعاشت مدينة الشحر أياماً عصيبة لا يعرفون ما الذي سيكون من آل طاهر وماذا سيكونون عليه هم وأشتد حزنهم على قرار مغادرة الأميرة الشحر وتسليمها للسلطان عامر الطاهري، فالأميرة سعاد استطاعت

أيام حكمها في كسب ود الرعية وحُبهم بما قدمته لهم من خدمات وعدل وسياسة حكيمة مُتَّزنة، ولولا عقوق ابنها الأمير محمد ما وصلت الأمور في البلد إلى ماهي عليه اليوم، أما الأميرة سعاد فقد لازمها الحزن والانكسار وكانت إذا خلت إلى نفسها تصبح شديدة البكاء وكثيرة الدموع، ولم تعد حالتها الصحيَّة كما كانت في سالف عهدها فظهر على محياها وجسمها الضعف والنحول، وما هي إلا أيام حتى أتاها خبر وصول ابنها إلى بلدته (حيرج) سالماً، فجهزت ما تبقى من متاعها وجواهرها وجواريها، واصطحبها القائد ابن عفار وزوجته نور وبقية الحاشية من قيادات في الإمارة والجيش الأميري، وكان أهل الشحر رجال ونساء وصبيان على ساحل البحر في وداعها، تزاحموا يغالبهم الأنين والألم، فحيَّتهم الأميرة سعاد مودِّعة ولا تكاد تحملها رجليها من صعوبة الموقف ووجع الفراق، صعدت الأميرة سفينتها وأذن ربان السفينة بالإبحار، والأميرة على ظهر السفينة قبالة مودعيها تلوِّح لهم بأيديهم فيبادلونها التلويح والتحيَّة حتى بعدت السفينة وتوغلت في مياه بحر العرب متجهة شرقاً فغابت عن عيني

الأميرة ملامح الناس الذين على ساحل البحر ولكنها بقيت شاخصة ببصرها على مدينتها الحبيبة حتى تلاشت الرؤية شيئاً فشيئاً وغابت المدينة.

## النِّهاية